



جوانب من مظاهر الفقر بتطوان القرن التاسع عشر

Aspects of poverty in Tetuan in the nineteenth century

د. أكدي حسن

Dr, Hassan Akdi

باحث في قضايا التاريخ الاجتماعي، تطوان - المملكة المغربية

Researcher in social history, Tetuan, kingdom of Morocco

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس

Faculty of Arts and Humanities Sciences Saīs- Fez

hassan.akdi17@gmail.com Email:

Orcid: www.orcid.org/0000-0003-4860-1713

الملخص

تكمن أهمية المقال في كونه يحاول إزالة العتمة عن ظروف صعبة عاشتها بعض عناصر عوام مجتمع المجال



التطواني إبان تعرضها لمختلف التحولات والاضطرابات الحاسمة في مرحلة القرن التاسع عشر، تداخلت فيها العناصر الهيكلية بالعوامل الظرفية أنتجت كمًا من الفئات المهمشة على رأسها الفقراء الذين تأتي دراستهم إسهاما أكاديميا أولي لبناء تاريخ حضري ذي صبغة أكثر شمولية بناء على ذلك الرصيد الوثائقي الذي يسلط - ولو بإيجاز - الضوء عليهم. وعليه سنحاول إبراز واقع هؤلاء الفقراء من خلال مؤشرات اجتماعية (الطعام، الأشرية، اللباس)، كمنطلق للتأريخ للمستضعفين الذين غيبوا قسرا من الكتابات التقليدية المحلية لأنهم- في نظر القوى المسيطرة- همج وحثالة لا يستحقون ذلك.

كلمات مفتاحية: الفقراء، تطوان، الأطعمة والأشربة، التهميش، أزمة عميقة.

Abstract

The importance of the article lies in the fact that it tries to shed light on the difficult conditions experienced by some members of the common people of the community of Tetuan during its exposure to the various transformations and decisive disorders in the nineteenth century, in which the structural elements interfered with circumstantial factors that produced a number of marginalized groups, namely the poor, whose study comes as a primary academic contribution to build a civilized history of a more comprehensive nature based on the available documentaries that shed-albeit briefly- light on them.

Accordingly, we will try to highlight the reality of these poor people through social indicators (food, drinks, clothing), as a starting point for the history of the oppressed who were forcibly absent from the local traditional writings because they were –according to the dominant powers- savages and scums who did not deserve it.

Keywords: poor, Tetuan, food and drinks, marginalization, deep crisis

مقدمة

كتب ليفي ستراوس في أصل أداب المائدة أن مطبخ مجتمع ما لغة تترجم بنيته بطريقة لاواعية، وتكشف عن

تناقضاته¹. بمعنى آخر أن الربط بين النظام الغذائي والتراتب الاجتماعي، هو حقيقة نوع من الدراسة للبنية الاجتماعية في ضوء موقع الفئات ضمن هرمية المجتمع، دون التقييد بالتصنيفات الأيديولوجية الهادفة إلى تثبيت القوى السائدة. إن مفهوم التراتب الاجتماعي لا يمكن تضييقه آليا في التصنيف الاقتصادي، بل لابد من تداخل العوامل، ومنها العوامل الثقافية، في النظر إلى الهندسة العمودية والأفقية للمجتمع وشبكة علاقاته الداخلية². فالتراتب حاضر في جميع الأنساق، باعتباره نتاجا موضوعيا لتاريخ من العلاقات والممارسات التي تتكتب في المجال. ففي كل حين، وفي كل سجل، نلاحظ تراتبا مؤسسا، تتبني على إثره التفاعلات والعلاقات والانتماءات الاجتماعية³. وهو ما ينكشف في المائدة المغربية وتحولاتها وتناقضاتها، فهي تراتبية من صميم مجتمع تراتبي⁴.

بتركيز شديد، فمن خلال الأطعمة والأشربة الأصيلة منها والذخيلة، يمكن فهم بنية المجتمع، ونمط الاقتصاد، ومجموع القيم. هذا ما تختزله المقولة الألمانية الشهيرة، 'قل لي ماذا تأكل، أقول لك من أنت' *Dis-moi ce que tu manges, je te dis ce que tu es*⁵ ففي العادة أن صنف الغذاء يحيل مباشرة إلى الفئة الاجتماعية لمستهلكها. ولعل طرق عنصر كهذا ليست مادته جاهزة أو متيسرة، مما يجعلنا نصطدم بصعوبات جمة من جهة وفور مادته المصدرية في مختلف أنواع المادة التاريخية، إذ تكاد تقتصر المعلومات المتاحة حول الموضوع على تلك التي توردها المونوغرافيات والآداب الخاصة بسيرة الأولياء والصالحين، أو بعض الوثائق المتعلقة بنظام الحسبة مثلا، بالإضافة إلى بعض كتب الأغذية والأدوية، والنبات، والطب، والفلاحة التي من شأنها تزويد الباحث ببعض المعلومات عن الغذاء⁶، في حالة التمكن من الحصول عليها. بل حتى المراجع القليلة المتناولة لتاريخ الغذاء بالمغرب تعاني أيضا من البياضات التي تتخلل بعض الفترات التاريخية، كما أنها لا تمت إلى اليومي بصلة بقدر ما تتم عن تغذية القياد والقصور من

¹ - محمد حبيدة، « الخبز في المغرب »، مجلة زمان، ع 5 - 15 فبراير - 15 مارس 2014، م س، ص. 46.

² - سعيد بنحمادة، « الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، مدخل لدراسة العوائد والقيم » ضمن، النظام الغذائي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط دراسات في سوسولوجيا الأحكام والقيم والعوائد. سلسلة شرفات رقم، 77، أكتوبر 2016، منشورات الزمن، مطبعة بني إزناسن سلا، ص. 55.

³ - عبد الرحيم العطري، قرابة الملح، الهندسة الاجتماعية للطعام. المكتبة الاجتماعية، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، طبعة 2016، ص. 296.

⁴ - المرجع نفسه، ص، 299.

⁵ - محمد حبيدة، « الخبز في المغرب ». م. س، ص. 44.

⁶ - نعيمة المدني، المحددات الاجتماعية والثقافية لتحولات العادات الغذائية بالعالم القروي، دراسة ميدانية بالعالم القروي بالعرراش. دكتوراة في

السوسولوجيا، نوقشت، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. السنة الجامعية 2009-2010، ص. 92

خلال بعض الكنائش المتوفرة¹. بخلاف العوام الذين يعسر علينا إيجاد متون تاريخية قد تكشف لنا عن غذائهم الذي يعبر دونما شك عن واقعهم المعيشي البئيس في ظل اختيارنا لتراتبية مخزنية أسسنا عليها بناء موضوعنا بخصوص تراتب مجتمع المجال المذكور.

أهمية البحث

يهدف بحثنا إلى تحقيق غايتين:

- أولاً إثارة اهتمام الباحثين بضرورة البحث في تاريخ الفقراء والبسطاء، بدل التركيز على النخب وقضاياهم لأن ذلك يسهم في استمرار تاريخ منقوص تغيب فيه الموضوعية.
- ثانياً إبراز جوانب ذات أهمية في تاريخ فقراء تطوان لم يسبق التطرق لها، وهي تناول تلك الأطعمة والأشربة والألبسة التي تخص هذه الفئة التي غيبت من التدوين التاريخي لأسباب عدة.

أهمية البحث

نظراً لمستجدات البحث التاريخي على مستوى المناهج وتفاعل علم التاريخ مع علوم أخرى، وتوظيف التقنية في استثمار ومعالجة الوثائق وضبط متونها، فإن بناء معرفة تاريخية ذات مصداقية يقتضي إعادة النظر في كل ما كتب حول تاريخنا، وهذا يتحقق بجعل المهمش أو الهامشي في قلب الاهتمامات من طرف الباحث المعاصر.

إشكالية البحث

تصب محاور بحثنا في إطار محاولة طرق إشكالية فتح نافذة حول قضايا تاريخ المغبيين في التدوين التاريخي المحلي، خاصة تلك الفئات التي لا نجد لها صدى في كتب التاريخ الكلاسيكية. ولعل الفقراء أبرز العناصر التي لا نجد حولها سوى شذرات هنا وهناك، غير كافية لمعرفة أحوالهم وتفاعلاتهم خلال فترات التاريخ. من هذا المنطلق نجد أن صوت مجتمع فقراء تطوان القرن التاسع عشر غير موجود في تلك المدونات، وفي مختلف الجوانب.

نتيجة هذا جاءت الإشكالية الأساسية لمقالنا كالاتي: ماهي الأطعمة والأشربة والألبسة التي شكلت أساس شطف عيش فقراء عامة المجتمع التطواني، والتي كانت تعبيراً عن فقرهم وتدني أحوالهم المادية ضمن التراتبية الاجتماعية آنذاك؟

منهجية التحليل

¹ Mohammed, Monkachi, « L'alimentation traditionnelle dans les campagnes du nord du Maroc ». Revue médiévale, automne 1997, N° 33, p.99.

اقتضت عملية التحليل لهذه الاشكالية تبني المنهج التاريخي المرتكز على المصادر التاريخية بهدف تركيب معطياتها وتأويلها فيما تقتضيه وتتطلبه محاور البحث، مع توظيف مقاربة التاريخ من الأسفل كنهج يبتغي الإحاطة بجوانب عدة تهم فقراء الحاضرة. وحرصا على الموضوعية وملء بياض ما أغفلته متون المصادر التقليدية بخصوص أطعمة وأشربة وألبسة تلك الفئة المطروقة. اتخذنا نهجا في إبراز هذا الجانب- وإن كان مقدوحا فيه - والمتمثل في تطبيق نتائج بعض الملاحظات الأقرب عهدا وفرتها بعض المصادر والدراسات، على الماضي، من باب تقريب الصورة، مستندين في التحليل على أن صيرورة التحول التاريخي للمجتمع المدروس كان بطيئا، فلا اختلاف جذري بين فترات حديثة وأخرى معاصرة إلا في تفاصيل جزئية.

1. نماذج من الأطعمة *

المتصفح لكثير من وصايا التحبب التي دأب عليها أهل الإحسان من فئات الأعيان بالمجال التطواني يتضح مدى حرصهم على تخصيص جزء من ثلث وصاياهم لتوفير الخبز لصالح الفقراء والمستضعفين، بما يعنى أنها شكلت أساس تغذية هذه الشريحة العريضة من قاع المجتمع، و من الأمثلة في هذا الصدد نذكر:

« و ما فضل من المائة منقال الثانية المذكورة يشتري به زرع ويفرق على الفقراء والمساكين...والنصف الآخر يوقف...لخبز الخميس يفرق على الفقراء والمساكين على عادة البلد »¹.

- « فإن مات الولي المذكور رجع الغدان المذكور حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا على خبز المساكين تباع غلته ويشترى بها الخبز وتفرق يوم الخميس على الفقراء والمساكين على عادة البلد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»².

*تعد دراسات الباحثين الغربيين رائدة في تناول موضوع الغذاء والطبخ والمائدة في الكشف عن عدة تحولات و تفاعلات ميزت المجتمع الإنساني في قضايا مختلفة كل من زاوية تخصصه، ومن النماذج التي نذكرها في هذا الإطار:

~F,Baudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, 15^e-18^e siècles. t. 1, Les structures du quotidien*, Paris, 1988.

~J.L. Flandrin et A. Maurice et al (dir), *Le temps de manger*, Paris, 1993.

~ M, Montanari, *La faim et l'abondance*, Paris, 1995.

~ L, Bourdeau, *Histoire de l'alimentation*, Paris, 1894.

~W, J, Ashley, *The bread of forefathers, an inquiry in economic history*, Oxford, 1928.

~ Levi Strauss, Claude, *Le cru et le cuit*. Ed. Plon, 1964.

~ Menell Stephan et al, *The sociology of food, eating, diet and culture*. The Journal of The International Sociological Association. Vol. 40. N° 2. Sage publications, 1992.

~ A, Moroizio, *Histoire de l'alimentation et de la gastronomie, depuis la préhistoire jusqu' à nos jours*, Paris. 1948.

1- وصية الحاج محمد بن مرحوم السيد علي الشرتي التطواني، بتاريخ 6 رجب 1293هـ / 20 يونيو 1876م، حوالة المنقطعين، بنظرارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتطوان، ص. 35.

2- وصية امرأة لغللة فدان، بتاريخ 1312هـ / 1895م، الحوالة نفسها، ص. 112.

« ينتفع بخراجهما المحتاج من أقاربه من جهة أبيه فإن لم يكن أحد منهم محتاجا لذلك فيصرف خراجهما في شراء الخبز وتفرق على المساكين كل يوم خميس»¹.

فلاشك أن الخبز هنا، أتى في مقدمة الأطعمة التي شكلت غذاءا يوميا ذا أهمية في حياة البسطاء والأغنياء على حد سواء، بل يحضر كوجبة أساسية ضمن مؤن مخصصة للسجناء على اختلاف أصنافهم²، أضف أنه كان يتخذ زادا للمسافر وللرجال خلال التعزيب للرعي والحرث³. وتؤكد الثقافة الشعبية من خلال عدة أمثال عامية هذه المركزية التي كان الخبز يشكلها في حياة هؤلاء البؤساء، « خبزتي تحت يباطي، ما يسمع حد عياطي »⁴، أي أن غالبية الفقراء كانوا يرون في الخبز رمزا للقناعة بالقليل وقيمة مثلى للستر، مقابل تجنب مذلة الشكوى وإهراق ماء الوجه في الوسط المجتمعي أمام أي كان، « الخبز والماء، ولا جميل مول النعما »⁵. مع الحرص في السعي إلى تحصيلها وفق قيم الحلال، « الخبز والماء ف رضا الله، أحسن من الثريد ف غضب الله »⁶. لذلك يعد الخبز بهذا المنطق مصدر الأمان الذي متى توفر حقق لصاحبه الاستغناء عن الآخرين⁷.

من جهة أخرى، فالمكانة التي كان يشغلها الخبز في حياة غالبية ضعفاء المجال، جعلتهم و أمام قسوة الملمات بفترات القرن التاسع عشر، يسعون في النجاة من آثارها القيام بتجاوزات أخلاقية و أمنية تظهت في تمردات وإغارات مارستها شرائح قبلية مسحوقة ضد أملاك الأعيان بالمدينة في مناسبات كثيرة. بل معلوم أن الجفاف الذي تواترت مواسمه بشكل كارثي بالمجال، أسهم في نقص حاد في الغذاء دفع بغالبية فقراء القبائل إلى التناح من أجل الأرض والماء، أساسيات وجود هذا الخبز. كما أن انعكاسات الأزمة الغذائية التي اجتاحت البلاد منتصف القرن التاسع عشر، دفعت بالناس على اختلاف مقاماتهم - و في ظل موجة الأسعار التي عصفت بالمواد الضرورية- إلى البحث عن خبز السوق الذي كانت العوائل الميسورة تستهجن استهلاكه غالبا أيام الرخاء، « ولا يخفى ...أن اليوم بتطوان نحو

1- وصية التاجر عبد المالك بن الحاج أبي جيدة أمحلي الفاسي، بتاريخ 25 ذي القعدة 1220هـ / 8 فبراير 1806م، حوالة أحباس زاوية أبي جيدة، ص. 3.

2- راجع كناش أحباس الفقراء والمساكين بثغر تطوان ومدخول أوقافها، تحت رقم: 595، إذ يشار فيه و في مرات عدة أنه تم شراء الخبز لصالحهم.

3- نزهة نجاح، العادات الغذائية في المغرب زمن الحماية الفرنسية، الثابت والمتحول، أطروحة في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقطيطة، السنة الجامعية 2014/2015، ص. 118.

4- الأمثال العامية في تطوان والبلاد العربية. مراجعة و تنسيق وإضافات، حسناء محمد داود، إصدارات المجموعة الحضرية لتطوان، مطبعة الهداية، بتطوان، 1999 ج1، مثل رقم: 20، ص. 86.

5- نفسه، مثل رقم، 18، الصفحة نفسها.

6- نفسه، مثل رقم 17، ص. 86.

7- نزهة نجاح، العادات... م. س، ص. 119.

تسعة أقسام كلها تشتري الخبز من السوق فلم تدرك ثمن مد من القمح، والله إلا (والله) كنعرف أناس (كذا) كنا نظن فيهم أنهم من ذوي الأموال هم اليوم يشترون الخبز من السوق»¹.

فالمعلوم أن بيوت الفقراء بالمجال سواء في زمن الفترة أو الرخاء لم تخل من صنع مادة الخبز «الخبز والزيت ف كل بيت»² وهو ما كان يشكل إلى جانب الماء بالذات، عنوان الأمان و الاستمرار في الحياة بدون كدر أو غم «الخبز والماء، ما تبقى معاهم غما»³. بل هيمنت في موائد هؤلاء الضعفاء جعلت الكثير منهم يتخذ وسيلة للكسب «وهي حرفة قائمة قاعدة، لكثرة الآفايين»⁴، فكان حضوره مشاعا في أسواق المدينة حيث كان الباعة يعرضون بضاعتهم على قارعة الطريق أو في حوانيت صغيرة داخل الأسواق «ثم ترك الخدمة المخزنية، واحترف بيع الخبز في حانوت بالسوق الفوقي، قانعا بالضعف والفقير، غير متشوف لأكثر من طعام أهله وعياله»⁵، رغم أن القناعة التي كانت سائدة بالمغرب ليس من المشرف أن يطعم المرء أهله خبزا صنغته أياد أجنبية*، وذلك لما ارتبط بشراء الخبز من السوق من دلالات سلبية على رأسها الفقر. ويظهر ذلك من خلال زبناء باعة خبز السوق الذين ينضوي في إطارهم البؤساء، والوافدون على المدينة أو سكان الفنادق والعزاب⁶. وأحيانا يلجأ إليه في بعض المناسبات كما هو الحال في الجنائز حيث يتم شراء كمية منه من السوق أو الاستعانة بالفران لتحضيره بقصد تفريقه على الفقراء، «فإذا كان اليوم الثالث بعد يوم الدفن،...يفرقون الخبز على الطلبة والفقراء، ويقرأون الفاتحة»⁷، ودونما شك فجودته كانت رديئة، وهو ما سجله الأجنب ك (*John Windos*) عندما ميز بين خبز الفقراء، وخبز الأغنياء، فوصف الأول من قمح رديء، «أقل جودة، وهو الذي يكون قمحه مخلوطا بحبوب سوداء، وهذا الخبز يكون أسود وقبيحا، ولكنه رخيص، وبهذا الخبز

1- رسالة من محمد بن محمد بريشة إلى الحاج محمد المدني بنيس، بتاريخ 30 رجب 1284هـ / 27 نوفمبر 1867م. أوردها محمد الامين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم: 18، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء. طبعة 1992، ص. 202.

2- الأمثال العامية...، م. س، مثل رقم 14، ص. 86.

3- م. ن، مثل رقم 16، والصفحة نفسها.

4- أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاوين أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان، ج 1، ص. 227.

5- نفسه، ج 2، ص. 88.

* تؤكد حسناء داود أن نساء المدينة كن غالبيةن حريصات على طهي الخبز في المنزل لجودته، راجع، تطوان، سمات وملاحم من الحياة الاجتماعية. منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى 2019، صص. 294-296.

6- نزهة نجاح، العادات...، م. س، صص. 121-122.

7- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 223.

أيضا يغدون الطيور¹. كما عرف عن فلاحي المنطقة بتحضير نوعين من الخبز، الأول يسمى مركس ويتم تحضيره بواسطة مزيج من أنواع عدة من الدقيق المكون من الشعير، والفول، والحمص، والشنتيل (نوع من القمح ذو سنابل قصيرة وحببات صغيرة)، أما النوع الثاني من الخبز فسمي بالخليط ويعد بواسطة دقيق الشنتيل والذرة². و إلى جانب الخبز الذي كان الطعام الأكثر استهلاكاً وشيوعاً في أوساط الفقراء الذين كانوا الشريحة الأكبر في المجتمع، وهذا ما يشير له أحد العلماء بشكل صريح أثناء وجوده في أحد مساجد حومة البلد أثناء مطالبته بإلقاء درس ديني، « وكلكم مزليط، جمع مزلوط، أي فقير، فلا تحتاجون لقراءة باب الزكاة³. بل كثرتهم بالمجال دفعت بعض الأغنياء إلى انفاق جل أموالهم عليهم، وهو ما فعله أحد أفراد آل العطار كنموذج « ورجع منها بأموال طائلة، وأنفق جلها في إطعام الضعفاء والمساكين⁴. و تبرز ضمن مجموعة من المعطيات الخاصة بماضي العادات الغذائية بالمجال مكونات أخرى، في غالبها تتميز بالبساطة وذات قاعدة حبوبية في كثير من عناصرها نبينها كالتالي⁵:

جدول (1): مكونات مائدة فقراء المدينة وفق الوجبات الغذائية.	
الوجبة الغذائية	مكوناتها ضمن مائدة فقراء المدينة
الفتور	« تصنع الحريرة، وهي دقيق مطبوخ في ماء وملح، تارة من دقيق رطب، وتسمى بهذا الاسم. وتارة من دقيق أحرش مجروش، مصنوع من القمح أو الذرة، وتسمى الدشيش. ثم يفرغ لكل واحد في ءانية تسمى الزلافة أو الطاسة، مقدار ما يكفيه، من نصف لطر إلى لطر، فيشربه تارة صرفاً، وتارة مصحوباً بشئ من التين الأخضر أو اليابس، أو الزبيب أو الخروب...وربما آخروا شرب الحريرة إلى رجوع الرجال أو الصبيان من مهنهم ومواضع أشغالهم في الضحى الأعلى.»

1- محمد داود، تاريخ تطوان، مراجعة وتصحيح حسناء داود، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، طبعة 2013، مج 2، ص. 62.
 2- نعيمة المدني، المحددات الاجتماعية والثقافية...، م. س، ص. 223.
 3- عمدة الراوين، م. س، ج 6، ص. 58.
 4- المرجع نفسه، ج 3، ص. 255.
 5- سيتم ملء الجدول من خلال عمدة الراوين، ج 2، صص. 179-181. كما يرجع كذلك للتعرف على بعض مكونات الغذاء اليومي للتطوانيين لمحمد داود في، التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان الطبعة الأولى 2016، م. س، ص. 506.

<p>« و في الزوال، يجتمع شمل العائلة على ما هبئ لهم من الغذاء، من لحم أو حوت أو أمراق على إختلاف أنواعها، بواسطة إناث الدار. فيملأون بطونهم بما تيسر من ذلك. ثم ينتشر الرجال لمهماتهم، ويقعد الإناث في بيوتهن لمزولة حرفتهن.»</p>	<p>الغذاء</p>
<p>« ثم في العشاء يجتمع الشمل أيضا على ما يهيا من طعام الكسكوس، تارة بلحم، وتارة مدهونا بدهن، مع شئ من حليب أو لبن مضروب، أو من غير ذلك. ثم يقع النوم إلى الغد...هاكذا كان الحال إلى أوائل هذا القرن.»</p>	<p>العشاء</p>

هنا على ما يبدو - حسب الرهوني - توالي عادات غذائية ذات حضور يومي في موائد الفقراء، يعتقد أنها ترسخت بقوة في السلوك الغذائي اليومي للعوائل البسيطة بالمدينة إلى حدود مطلع القرن العشرين، قد لا تختلف أو لا تتغير إلا في مناسبات دينية أو عائلية أو احتفالية، أو حسب خصوصيات فصول السنة. ولربما ترتبط في تنوعها في الغالب بطبيعة المداخل المالية للأسرة الفقيرة التي عموما تظل جد متدنية إذا ما اعتبرنا نوعية الحرف و الممارسات المهنية التي تعاطاها أولياء العوائل الفقيرة، دون نسيان الطوارئ التي قد تأتي بالأسوأ على المستوى المعيشي لهذه الفئات، كوضع البطالة التي قد يجد المعيل نفسه ضحية لها لسبب من الأسباب.

و إننا هنا وإن كنا نحاول التقاط طبيعة الأطعمة التي شكلت مظهرا من فقر فئات عريضة من مجتمع المجال التطواني، فالأكيد أن مائدة الفقراء استحضرت أطعمة أخرى، تفاوتت قيمتها الغذائية ومكوناتها التي تميزت بالبساطة و سهولة طبخها مادامت موادها زهيدة السعر و منها ما يكون إنتاجا محليا يسهل الحصول عليه، كالبقوليات التي كانت البيئة مساعدة في نموها بكثرة في الغراسي والجنان التي كانت تحيط بالمدينة، « وذلك أنهم يقصون البقول ويخرونها في كسكاس، ثم يطبخونها في زيت ولفل، وليمون مصير، وزيتون وثوم ثم يعصرون عليه ماء الليمون بعد الطبخ »¹. كذلك الزعلوك ك « طعام يتخذ من البانجان مع الخل والزيت، والثوم واللفل. وسمي بذلك لأنه طعام الفقير »²، ثم الببصار الذي عد طبقا شهيرا بالمنطقة الجبلية لم تخل موائد الفقراء منه، خاصة و أن الفول كمادة أساسية تحضر منه انتشرت زراعته بشكل واسع بالفضاء الفلاحي لأحواز المدينة « وهو كثير وغالبه يؤكل أخضر. والميبس منه تصنع منه الببصار المعروف عند البربر. وربما نقب رأسه، وطبخ مع الخليج والكرنب. ويسمى المجموع مرق المنكوب »³، وللشعبية التي ارتبطت بهذا الطعام البسيط، نجد له صدى في الثقافة العامية، إذ اتخذ مضربا للأمثال في الوسط

¹- عمدة الراوين، م. س، ج3، ص. 85.

²- المرجع، نفسه، ج 3، ص. 193.

³- نفسه، ج 1، ص. 218.

المجتمعي العامي، فقد نظر الكثير إليه كما يفهم تفضيل العيش به عن رزق قد يكون تحصيله كله شقاء و هم، « البيصار والماء، ولا الجداد بالدباز »¹ أو إهانة وذل لزوجة تمتلك المتاع توفر للرجل رغد العيش، و يصبح هو مجرد رهينة لأوامرها وصورة ممقوتة تتعرض للاحتقار والتكيت القاسي من طرف الآخرين، «البيصار والماء، ولانطمع ف متاع المرا »²، وهذا لربما ما يفسر ذكرها وتناولها كأكلة متجذرة في تاريخ منطقة جبالة بشكل كبير ضمن الكتابات الأجنبية خاصة عند (A. Moulieras) و (Bernard). Rosenberger (E. Michaux Bellaire).

أما بخصوص الخضر والفواكه، فيؤكد الرهوني أن أهالي المدينة اعتنوا بزراعة أصناف عدة منها في أنشطتهم الفلاحية³، ولربما ونحن نتفحص متون عدة حوارات حبسية تبدو لنا كثافة عمليات الكراء و الإجزاء لعدة قطع عقارية فلاحية تعود لأحباس الزوايا والمساجد، تم استثمارها من عدة حرفيين لتوفير إنتاج زراعي قد يوفر لأسرهم بعض هذه المواد، ومن ناحية أخرى، تصريف الفائض بالسوق لدعم حرفته أو مستوى معيشته. «إجتزى الحاج إدريس بن محمد الراعي التطاوني الدباغ حرفة جميع الجنان المعطل الكائن... بأحواز تطوان سقوي... ليغرسه بأنواع الأشجار والعنب والرمان على اختلاف الألوان في المغارسة بعد مرور عشرين سنة »⁴. بل نجد و عبر صفحات لحوارات مختلفة ذكر زمام أكرية أو أجزية لفدادين أو غرس و جنان تعود لإحدى المؤسسات الدينية بالمدينة تنتشر في نطاقات مختلفة كسمسة، والعدوة، والمر، وغرابو، والمطربة، والمحنش، وباب التوت، والجمارين يستفيد منها ذوي النفوذ و الفئات المستضعفة كشرائح الحرفيين من نجارين، طفالين، حدادين، زنايدية، لفلاحتها بفواكه وخضر وغيرها⁵. لكن بالرغم من الدور الهام للأخيرة كمكمل للحبوب، إلا أنها لم تكن تحظى بالتقدير، كما يظهر ذلك بوضوح من خلال الثقافة الشعبية، حيث درج المغاربة على استخدام المثل القائل، «غير الخضرة فوق الطعام » للدلالة على ما هو ثانوي ويمكن الاستغناء عنه⁶، كما يستعملون « جزار وكيتهشى باللفث »⁷ للدلالة على أن الجزار الذي يتوفر له اللحم يفترض فيه أنه لا يتغذى بالخضر. وهذا دليل على أن بسطاء المجتمع و في ظل محدودية إمكاناتهم المادية كانوا مظطرين لاستهلاكها بكمية مهمة في مواعدهم من خلال تحضير وصفات غذائية بسيطة في الوجبات اليومية أو المناسباتية.

1- الأمثال العامية في تطوان...، م. س، مثل رقم، 329، ص. 73.

2- نفسه، مثل رقم، 330، ص. 73.

3- راجع عمدة الراوين، م. س، ج 1، صص. 212-217.

4- رسم إجتزاء لجنان، بتاريخ فاتح ذي القعدة، 16/1259هـ/16 نوفمبر 1843م، الحوالة العيساوية (فرع الفدان)، م. س، ص. 46.

5- يذكر هنا كمثال: زمام عدة فدادين و غرس من طرف الأهالي للاستثمار الفلاحي، ضمن : حوالة جامع سيدي علي بركة، ج1، صص.

69-65، زمام عدة فدادين بحوالة مسجد لوقش، صص. 22-24.

6- نزهة نجاح، العادات...، م. س، ص. 156.

7- الأمثال العامية...، م. س، مثل رقم، 53، ص. 78.

أما فيما يخص اللحوم وماتزال تحظى بأهمية كبيرة، إذ اعتبرت الغذاء الأكثر تغذية والمانح للقدر الأكبر من الطاقة¹. غير أن استهلاكها بالنسبة لبطء الناس عادة ما كان - وفي ظل محدودية الدخل - قليلا، و لم يكن حضوره كطبق يومي سوى عند الموسرين². لكن التساؤل هنا: ما هي الكمية التي كان يحتلها اللحم في موائد هؤلاء الفقراء؟ ما هي أنواع اللحوم التي استهلكوها؟

الإحاطة بنوع من الإجابة التي تخص هذه الإشكالات يقتضي منا اتخاذ مؤشرين: عيد الأضحى و المجزرة. لقد مثل عيد الأضحى مناسبة مهمة بالنسبة لفقراء المجتمع لأكل اللحم واستهلاكه بوفرة في وجبات مختلفة، لذلك تجد البؤساء يعملون جاهدين من أجل الحصول على كبش أو جدي أو غيره للاستمتاع يوم الأضحى بما يشبع نهم البطن من قطع اللحم، التي تزين أطباق موائدهم « فترى الناس قائمين قاعدين على شراء الضحايا، من إنتصاف القعدة إلى صبيحة يوم العيد، بكل ما أمكن من نقد أو دين أو رهن، أو بيع أصل أو غير ذلك»³. وخلال أيام العيد يتقن هؤلاء في صناعة عدة أطباق من اللحم تعرف ب« المحمرة والكفتة والشوية والمبخرة، واللحم في الفرن، والتحلية والمقلية، والشواء وغير ذلك»⁴. أما فيما يخص استهلاكه يوميا فلم يكن متاحا لهؤلاء « غير أن أكل القدماء للحم الطري كان نادرا، بحيث يؤكل من يوم السوق ليوم السوق. وربما أكل من الجمعة للجمعة فأكثر»⁵. كما أن الأجانب الذين زاروا المدينة يشيرون في كتاباتهم إلى أن بعض الدكاكين بأزقة المدينة اشتهرت بتوفير أكلات مختلفة كان العوام يستهلكونها رغم غياب شروط النظافة كالإسفننج والكفتة التي تطحن بمعينة التوابل والبصل و شيها بسفود حديدي⁶. وفي سائر الأيام كان الحصول على هذه المادة المغذية لمن يمتلك القدرة على ذلك، يتم إما من حوانيت الجزارين الذين يبيعونه بشكل يومي أو الأسواق الأسبوعية التي كانت مصدرا للتزود به رغم حالة القرف التي ميزت المجزرات التطوانية « بأرضيته المليئة بالفضلات والعظام، التي تتناوب هنا وهناك مع جمجمة عجل أو كبش تسيل دما ويغطيها الذباب»⁷، ولربما هذا ما يتطابق و ما جاء في المثل الشعبي بخصوص هؤلاء الحرفيين، « الجزائر، الدم قميصو، والذبان ونيسو، والكلب خاه»⁸.

¹ -M. Gaud, « L'alimentation indigene au Maroc », in Bulletin d'Institut d'Hygiene, n° 1-2.1993.p,24.

² -S,E,Holden, *The politics of food in Modern Morocco*. Florida, 2009, p. 7.

³ - عمدة الراوين، م. س، ج2، ص. 236.

⁴ - عمدة الراوين، المرجع، السابق، ج 2، ص. 237.

⁵ - نفسه، ج2، ص. 181.

⁶ - محمد الشريف، « أضواء على مجتمع تطوان سنة 1913 من خلال مشاهدات الرحالة الإسباني انخيل كابريرا » ضمن تطوان حاضنة الحضارة المغربية الاندلسية وأبحاث أخرى. منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة تطوان، طبعة 2013، ص. 160.

⁷ - محمد الشريف، المقال السابق، ص. 160.

⁸ - الأمثال العامية...، م. س، مثل رقم، 52، ص. 78.

من جهة أخرى، يؤكد موليراس أن ساكنة جباله والريف يكثرون من تناول اللحوم بحكم كونها مجتمعات رعوية، غير أن تناول لحوم البقر سيرتبط أكثر بالطبقات البورجوازية، في حين تقبل قبائل أخرى على تناول لحوم الدجاج أكثر¹. فمثلا كان طعام أهالي حوز تطوان يتألف من « السمك ولحم العجول والماعر »². وقد أظهرت البحوث أن نوع اللحم الذي يشتري بكثرة في القرى هو لحم العجل³.

بخصوص السمك يسجل أحد الباحثين أن المعطيات عن الأطعمة التي يكون السمك محورها جد شحيحة، وهذا في اعتقاده يفسر هامشية السمك في النظام الغذائي للمغاربة، لذلك ومهما يكن من أمر، فيجب أثناء التحليل التمييز بين المدينة والبادية، بين البحر والنهر، والأخذ بعين الاعتبار طبيعة العادات الغذائية وفق التراتب الاجتماعي. لذلك يسجل أحد الأجانب في رحلته عام 1861م - 1862م عن واقع أساسي في هذا الجانب، قائلا: « جميع الأنهار والأودية في المغرب غنية بالسمك، لكنها لا تزود إلا موائد سكان المدن »⁴. وتطوان من بين المراكز الساحلية التي تعاطى قطاع مهم من أهاليها نشاط صيد السمك لاسيما وأنها كانت تتوفر على ميناء متوسطي كانت له شهرة دولية « كأول ميناء في المغرب ضربت سفنه في آفاق البحر، وامتدت علاقاته التجارية إلى أعماق إفريقيا. وفي ميدان الجهاد البحري، تمكن هذا الميناء في أحد عهوده من منافسة سلا أو الجزائر. وكان اسمه معروفا من أمستردام إلى اسميرنه ومن لندن إلى تومبوكتو »⁵. وهو ما ساعد في وجود فضاء تجاري بالمدينة يختص في بيع أنواع الأسماك سمي بسوق الحوت* التي شكلت جزءا من أطعمة عامة الناس على ما يبدو كان يتم تزويده مما يصطاده الحوارة بفلائكهم، « فقد بلغنا كتابك مخبرا بتهيئتك فلائك الحوارة للاثيان »⁶. والمؤسف أننا لا نتوفر حاليا على مادة تاريخية تساعدنا في تحديد الأصناف السمكية التي استهلكها الفقراء و الوجبات الشهيرة التي كانوا يحضرونها به.

1- نعيمة المدني، المحددات الاجتماعية والثقافية...، م. س، ص. 218.

2- أوجيست موليراس، المغرب المجهول، اكتشاف جباله. ترجمة وتقديم، عز الدين الخطابي، منشورات تفران اء ريف، الطبعة مطبوعة النجاح الجديدة البيضاء، الأولى 2013، ج2، ص. 567.

3- نزهة نجاح، العادات...، م. س، ص. 164.

4 -G, Rohlfs, *Voyage au Maroc*, 1861-1862. Revue Africaine, 1863. P. 208.

ورد بكتاب، محمد حبيدة، المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار. منشورات ملتقى الطرق، البيضاء، صص. 77-78.

5- جون لوي مبيج، امحمد بن عبود، نادية الرزيني، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، منشورات تطوان أسمير، الطبعة الأولى 2002، ص. 67. وللتعرف على جوانب مختلفة لهذا المرسى يرجع لكتاب محمد الحبيب الخراز، تاريخ مدينة مرتيل. مطبعة الخوارزمي، الطبعة الأولى 2020 .

*يصفه أنخيل كابريرا بكونه سوفا ذا روانح كريهة وعفنة، إذ يقول في نصه المترجم من طرف محمد الشريف، ما يلي: «كان عبيرها يبدو لنا أكثر لطافة من ذلك الذي وقفنا عليه في هذه الفترة في سوق السمك، الأكثر تنانة من الجميع» أنظر، «أضواء على مجتمع تطوان سنة 1913 من خلال مشاهدات الرحالة الإسباني أنخيل كابريرا» ضمن تطوان حاضرة الحضارة م. س، ص. 159

6- رسالة سلطانية إلى قائد تطوان، بتاريخ 13 ذي القعدة 1264هـ/ 4 أكتوبر 1848م، ب: مح 2، م. و. م، بالرباط.

والحاصل هنا، أن المغاربة كما تستنتج نعيمة المدني عرفوا باستهلاك سمك النهر خاصة الشابل والبوري، وكتب النهر، غير أن موليراس أشار لوجود قبائل لم تتناوله¹. وقبائل أخرى كانت أكثر استهلاكاً له من غيرها، ونذكر تحديداً بعض جهات الريف وجباله كالأخماس « ويمزج سمك الوديان الذي لا طعم له، بالفلفل الأحمر الحار »². وحتى لا نغفل أهم وجبة ارتبطت بتغذية فقراء المغرب بما فيهم بؤساء المجال التطواني، لكونها لا تكلف كثيراً في تهيئتها مع قدرتها على تحقيق الشبع لغنى مكوناتها « بالنسبة لعامة الناس، الكسكس طعام وزردة في ذات الوقت، إذ يغذي كثيراً ولا يكلف إلا قليلاً »³، بل حتى الرحالة الشهير و الذي عرف بعلي باي العباسي اعتبر « أن هذا الطعام هو أفضل طعام في متناول الشعب، لأنه بالإضافة إلى ميزة يسر الحصول عليه ونقله، يضاف أنه ذو فائدة غذائية قصوى، وأنه صحي ولذيذ »⁴. وهو ما يلخصه المثل العامي في هذا الصدد في حب العوام له « ما ربو عن كسكسو غير سخانتو »⁵، فكان أشهى كسكس ما زين بخضر أو بغيرها، وألذه ما علاه لحم⁶، و عد بتطوان وجبة رئيسية خلال العشاء حيث طبخ في أشكال ك « مسقي، ومسمن، والسافة »⁷. و يحضر كوجبة أساسية في مناسبات عدة، كمواسم الأولياء إذ « يشتري رأساً من البقر، ويوزعه على الدور التي تصنع قصعة من كسكوس، وتوجهها لمحل الموسم، ثم يعرض على الطلبة والطوائف »⁸، و في مناسبة الحاكوز أيضاً يحضر مع عدة وجبات إذ يتم وضع قفال على طنجرة الكسكس ليتم « تبخير الكسكوس ونحوه، خوف أن يقفل عليهم الرزق في العام كله »⁹، و في بعض الأيام ذات الطبيعة الدينية يشكل جزءاً من أكالات الضعفاء وغيرهم، مثل ليلة القدر « فينهض النساء من النوم، ويشتغلن بتيسير السحور، وهو في الغالب كسكوس مسمن، مع حليب أو لبن،... والمترفون يزيدون كفتة أو نحوها »¹⁰.

2. نماذج من الأشربة

عدّ الماء أهم المشارب التي شكلت جزءاً من مطبخ و موائد المغاربة عموماً، ولأن غالب قوتهم من الزراعة

1- المحددات الاجتماعية والثقافية...، م. س، ص. 218.

2- المغرب المجهول، م. س، ج 2، ص. 100.

3- محمد حبيدة، المغرب النباتي...، م. س، ص. 69.

4- ضومغو فرانتيسكو باديا، رحلات عبر المغرب، ترجمة مزوار الإدريسي، منشورات ليطوغراف طنجة، طبعة 2008، ص. 28.

5- الأمثال العامية...، مثل رقم 111، م. س، ص. 136.

6- محمد أستيتو، « أقوات وتغذية في تاريخ المغرب الحديث، (ق15-18م) » مجلة أمل، ع17، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، السنة 1999، ص. 33.

7- التكملة، م. س، ص. 506.

8- عمدة الراوين، م. س، ج2، صص. 241-242.

9- نفسه، ج 2، ص. 239.

10- نفسه، والجزء نفسه، والصفحة نفسها.

والرعي، فقد كانوا يستبشرون بالمطر ويخرج أطفالهم تحته منشدين*، حتى أنه لم يكن من المقبول لديهم بيع الماء أو رد طالبه، فهو يمنح بالمجان أو مقابل الترحم على الوالدين. كما اشتهرت المدينة لإرواء عطش عامة الناس بانتشار عدة طبيرات في أزقة المدينة في إطار ما سمي آنذاك بأحباس الطبيرة¹، وحتى باعة الماء فإنهم كانوا يعتبرون مهنتهم عملا يؤجرون عليه، وما يقدم لهم صدقة، لذلك يجوبون الأزقة وهم يرددون «الما فسبيل الله ولي عطا شي فسبيل الله»².

ونظرا لانعدام الماء داخل البيوت أو قلته كان سكان العديد من المدن يتزودون بالماء من الباعة الذين أثاروا انتباه كثير من الملاحظين الأجانب فوصفهم بدقة. ويظهر من هذه الأوصاف أنهم يحملون على ظهورهم قريبا من جلد الماعز تشد كل واحدة منها بحزامين قويين من الجلد، وتزود بصنبور من النحاس اللامع، وتستند إلى الورك الأيسر على وزرة من الجلد تقاديا للرتوبة. ويرتدي الكرابة جلبابا قصيرا بحيث تبقى أرجلهم عارية، وتتدلى من أعناقهم سلاسل تنتهي بأكواب معدنية، ويحرك كل منهم ناقوسا للإعلان عن بضاعته³. وقد أحصي من ممارستها بتطوان مستهل مرحلة الحماية 3 أو 4 مغاربة من الجنوب، وآخرون من اليهود والإسبان بينهم رجال وأطفال يقدمون خدماتهم للبيوت التي ليس فيها خزانات، حيث يحملون الماء من النهر في جرار طويلة توضع في الشواري، وتقل عند العودة بالعشب والورد والقصب وشجر الحور⁴. وفي هذا الإطار يشير الباحث خالد الرامي أنه إن كانت بيوت الأعيان امتلكت فائضا من الماء في بيوتها، فلم تتوفر الدور المتوسطة والصغرى سوى على معدات 'كأس عدل' وهو ما سمح لأصحابها بغرف ما شاءوا من الماء دون التصرف في الفائض عن الحاجة، ونتيجة لهذه الوضعية لم يكن متاحا لأصحاب هذا النوع من المساكن إحداث خصات أو نافورات، فأنشأوا معدات عادلة هي عبارة عن أوعية فخارية أو صهاريج صغيرة مبنية، يتم وضعها في أي ركن من المسكن بالمدخل أو الفناء أو المطبخ. وتشير الوثائق إلى إشتراك أسرتين أو ثلاث أسر

*في هذا الإطار يرجع لدراسة، ألفريد بل، بعض طقوس الاستمطار إبان الجفاف لدى المغاربة، ترجمة، سمير آيت أومغار، تقديم خالد طحطح، منشورات الزمن، مطبعة بني إزناسن، سلا المغرب، طبعة 2016، حيث يمكن الاطلاع على السلوكات الدينية و الشعبية التي يمارسها المغاربة أثناء الجفاف أو نذرة الماء.

1- محمد العبدلاوي، «الدور السوسيو إقتصادي للأحباس بالمدن المغربية، مثال مدينة تطوان العتيقة» مقال بمجلة كلية الآداب بتطوان، ع 4، السنة 1990، ص. 173.

2- نزهة نجاح، العادات...، م. س، ص. 233.

3- المرجع، نفسه، ص. 237.

4- نزهة نجاح، العادات...، م. س، ص. 237.

في معدة واحدة¹. بل العديد من الأسر الضعيفة كانت تزود بالماء من السقايات العمومية التي انتشرت بأحياء المدينة، ومنهم من كان يقوم بعملية إجزاء لنصيب من ماء سقايات الأحباس لاستغلالها في أنشطتهم المنزلية اليومية « الحمد لله شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه يعرفون القناة الكائن عن عين الصاعد الطالعة الولي الصالح سيد الحاج علي بركة نفعنا الله به المقابل لدرج دار الفتوح الآن أتم وأكملها بها ومعها يشهدون بأنهم...يعرفونها تسمى قناة حومة الطالعة وتنسب إليهم وممن ينتفع به أهل الحومة المذكورة بالسقي منه لدورهم وغسل ثيابهم وخرق صبيانهم فيه وميضة يدفع الفضلات المجتمعة فيه والنازلة من دورهم من غير علم منازع»². ولا ندري من جهة أخرى، أن بيوت المستضعفين على اختلاف شرائحهم امتلكوا بمنزلهم ما سمي آنذاك بمطفية الماء والتي كانت عبارة عن حجرة أو مخزن تحت أرضي يهياً خصيصاً لحفظ مياه الأمطار³.

وكما نشير، فالماء كان المرافق الطبيعي للوجبات الغذائية لأهالي تطوان حتى قالوا: «الما أمان»⁴ وكذلك قولهم «الماكلا بلا ما من قلة الفهاما»⁵ نظراً لدوره كما كان يعتقد في هضم وبلع الطعام، خاصة وأن مكونات غذاء الفقراء كانت بالأساس تتشكل من الخبز بمفهومه الواسع، والذي يتميز بصلابته وجفافه. وحضور الماء في الموائد هو من العوائد التقليدية سواء عند الأغنياء أو الفقراء، «لأن الذين يمنعهم من شرب الخمر وجميع المشروبات الكحولية، ما عدا عصير بعض الفواكه، ولكن بالرغم من ذلك المنع، فإن غالبهم يسكرون بخمور قوية يصنعونها من كل نوع يستطيعونه، وأهم ما يتناولونه عقب الأكل هو حليب مجمد»⁶. وهذا المشروب الأخير كان كذلك له وجود بموائد الفقراء، بل إن عدة بسطاء كان مورد رزقهم الأساس هو بيع الحليب بالسوق، «وبعض السلع تباع منفردة في بعض الأماكن المحددة بدت لنا أسواق الحليب والزهار أكثر أهمية، لأنهما من عمل النساء اللاتي يأتين من خارج المدينة، لابسات البياض مع لثام يغطي الوجه إلى مستوى العينين، مع شاشيات هائلات من عسف النخيل»⁷. أي أنه شكل جزءاً من الإدام إلى جانب العسل والخليج والجبن واللبن...الذين اشتهرت ببيعه أسواق تطوان آنذاك⁸. بل وفرة هذا

¹- النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان 1862-1913. منشورات جمعية تطوان أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، طبعة 2008، صص. 178-180. وفي هذا الجانب يرجع أيضاً لكتابه، تطوان خلال القرن الثامن عشر، تاريخ وعمران، مساهمة في دراسة المدينة المغربية. مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى سنة 2005. ص. 137.

²- رسم مؤرخ في 11 ذي القعدة 1301هـ / 25 غشت 1884م، حوالة زاوية سيدي علي بركة، بنظارة الأوقاف بتطوان، ص. 1.

³- حسناء داود، تطوان، سمات وملامح...، م. س، ص. 21.

⁴- الأمثال العامية...، م. س، مثل رقم 1، ص. 132.

⁵- م. ن، مثل رقم، 311، ص. 142.

⁶- مقتطف من رحلة John Windos، أوردها داود، تاريخ تطوان، م. س، مج 2، ص. 61.

⁷- محمد الشريف، «أضواء على مجتمع تطوان...» تطوان حاضنة الحضارة...، م. س، ص. 159.

⁸- عمدة الراوين، م. س، ج 1، ص. 247.

المشروب وتعاطيه ارتبط باحتراف شريحة مهمة من هؤلاء الضعفاء لتربية مختلف أنواع الماشية، سواء خارج المدينة أو داخلها، إذ نجد بمتون الحوالات الحبسية حضورا كثيفا للأروية التي كانت فضاءا خاصا بتربية المواشي تمتلكها عوائل تطوانية عديدة سخرت جزءا من إنتاجها لصالح الأسرة و لمن يعتني بثروتها الحيوانية. كما كان الحليب حاضرا في بعض المناسبات بدل مشارب أخرى، كالزفاف « وفي يوم الخميس يكون بدارالزوجة المحضر وهو احتفال يحضره النساء.وأكلهن فيه الحوت والحليب واللحم المقلي»¹، وفي الحاكوز كذلك « يجعلون العشاء غالبا مخلوطا بالحليب، تقاؤلا بדרور الرزق في العام»².

ومن جهة أخرى، يبدو أن الاستخدام الأكثر شيوعا، هو تحويل الحليب إلى لبن مخيض، حتى أنه وجد بائع لهذا المشروب الذي شكل مصدر انتعاش لساكنة المدينة وبواديها، عرف بالكلاس، « سوى باعة اللبن ومن معه، فيختصون بإسم الجلوس، أي الجالس في الحانوت كثيرا لبيع ما يضعه عنده أرباب ما ذكر»³. ونظرا لبياض الحليب، فقد اعتبر في الذاكرة الشعبية مشروبا يقدم للأحباب فقط بخلاف اللبن، « الحليب للحباب، والرايب للأرباب، واللبن للكلاب »⁴. غير أن نوع الحليب الذي فضله أهل تطوان كثيرا «حليب المعز والنوق، وبالخصوص هذا الأخير، لأنهم يعتقدون أنه مغذي وأنه ألطف من حليب البقر»⁵.

في نفس السياق، تفيد بعض الإشارات استهلاك القهوة من طرف ساكنة الشمال خلال القرن التاسع عشر، حيث يذكر علي باي العباسي في رحلته أن عادة تناول القهوة بكثرة، قديمة بالمغرب إذ يتم تناولها في كل ساعات النهار شأن الشرق⁶. وهي نفس ملاحظات دانييل شروتر الذي أشار إلى أن القهوة سبقت شعبيتها الشاي، فإن استهلاكها كان كثيرا أيضا. ويتضح من إحدى الرسائل المخزنية، أن الغلاء الذي كان يعرفه منتج القهوة دليل على تعاطيها من طرف شرائح المجتمع، لذلك يتم المطالبة بتدخل السلطة بتحديد قيمة ثمنها، تحقيقا لرواجها، و مما جاء في هذا المضمار: « كتب لنا يذكر أن الدليل على صدق ما بلغه هو قلة بيع القهوة عندنا مع أن أهل... أكثر الناس استعمالا لها وأمرني فيه أن نخبره بعده...بما اقتضاه الحال والمقام لأن قلة بيعها من غلاء سعرها وضعف حال الناس وقد تركها جلهم ومن بقي يتعاطاها منهم غالبه يضيف إليها الحمص المحروق وأهل الذمة أكثر وبسبب ذلك قصرت الأيدي عن شرائها

1- نفسه، ج2، ص. 203.

2- نفسه، ج2، ص. 239.

3- نفسه، ج1، ص. 248.

4- الأمثال العامية، م. س، مثل رقم، 130، ص. 83.

5- مقتطف من رحلة John Windos ، أوردها داود، تاريخ تطوان، م. س، مج2، ص. 62.

6- علي باي، رحلات عبر المغرب. ترجمة، مزوار الإدريسي، منشورات ليطوغراف طنجة، الطبعة الأولى، 2008، ص. 30.

وعدد ما بيع منها مدة ولايتي أربعة وأربعون قنطار وثمانية وعشرون رطلا وإن أراد سيدنا أن يكثر البيع فيها فليردها لزيادة الثلث فيها كما كانت من قبل كان الرخي يحمل الناس على شرائها وشربها¹، وبالرغم من أن القهوة لم تحقق الشعبية الواسعة التي حققها الشاي، فقد تزايدت الكميات المستوردة منها خلال القرن التاسع عشر. ونتيجة لهذا التطور في الاستهلاك، ارتفعت أعداد المقاهي. وفي هذه المحلات، كان الناس يقضون وقتهم في ارتشاف الشاي أو القهوة والاستمتاع إلى بعض الموسيقين المتجولين²، وربما الحديث عن شؤون الحياة و غيرها في أجواء خاصة يصف (Étienne Riche) 1873-1929 جزءا منها حينما زار تطوان قائلا: « وشاربوا القهوة هؤلاء، ومدخنو النرجلية، هذه الوجوه والألبسة، لا شئ تغير من كل هذا منذ قرون»³.

والرهوني في تناوله للحرف التي سادت بالمدينة يشير إلى أن المقاهي كانت منتشرة ببعض أحياء تطوان كفضاءات أتى بها تأثير الهجرة الجزائرية، إذ أقبل على شربها خواص الناس وعوامهم « كأرباب الحوانيت والصناعات»⁴. وهي نفس الملاحظة التي يسجلها بعض الأجانب بخصوص تطوان إذ كان تعاطى سكانها القهوة بكثرة⁵. سواء في الأيام العادية، إذ تجد العوام كما يصف الأركون كل مساء يذهبون إلى أحد المقاهي التي يملكها الجزائريون بساحة الوسعة ممددين فوق حصير يدخنون وهم يرتشفون فناجين القهوة المطبوخة⁶، أو في بعض المناسبات كالأعراس⁷ و الاحتفال بختم الصبيان لحفظ القرآن⁸، أو حتى ليالي شهر رمضان⁹.

لكن يتضح أن القهوة مشروب لم يستطيع مجارة الشاي في الانتشار بأوساط الأغنياء أو الفقراء على حد سواء.

- 1- رسالة من أحمد الحداد العربي بن المختار، بتاريخ 13 رمضان 1268هـ/ 24 يونيو 1852م، ب: مح 17، م. و. م، بالرباط.
- 2- شروتر دانييل، تجار الصويرة، المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886. تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، 6، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، طبعة 1997، صص. 151-152.
- 3- ريشي إتيان، رحلة في أسرار بلاد المغرب. ترجمة بوشعيب الساوري، وتقديم المبارك العروسي، إفريقيا الشرق، البيضاء 2016، ص. 86.
- 4- عمدة الراوين، م. س، ج1، ص. 229.
- 5 - N , Michel, *Une economie de subsistances, le Maroc Precolonial*, Le Caire, 1997. 2 vol.p. 486.
- ونفس الملاحظة يسجلها كاتب أجنبي، قائلا: «...أنشأ الجزائريون مقهى على غرار المقاهي الذائعة الصيت في بلدهم الأصلي...هناك يقضي بعض أوقاتهم مجتمعين الشيوخ والشباب...في تجاذب أطراف الحديث، فإنهم يتناولون القهوة مستغرقين في تأملاتهم وأفكارهم...» أنظر دي الأركون بيدرو أنطونيو، يوميات شاهد على حرب تطوان، ترجمة، محمد عبد السلام المرابط، منشورات ليتوغراف طنجة، الطبعة الأولى 2012، ج 2، ص. 124.
- 6- يوميات شاهد...، المرجع، السابق، ج 2، ص. 270. وفي نفس الصفحة يشير إلى أنه بدوره كان يفضل شرب تلك القهوة لكونها ذات مذاق خاص، فطابخواها كانوا، «يضعونها في غلاية من حديد يضعونها بين جمرات متوهجة متأججة حتى تصبح القهوة أشبه ما تكون بصلصال محمص، رائحتها نفاذة ومذاقها غاية اللذة بالنسبة للعارفين. بالنسبة لي أنا الذي أهوى القهوة...».
- 7- عمدة الراوين، م. س، ج2، صص. 196-197.
- 8- المرجع، نفسه، ج2، ص. 215.
- 9- نفسه، ج 2، ص. 233.

فمولييراس يقدم تفسيراً لهذا الانتشار الواسع للشاي، كرخص ثمنه، وقرب جبل طارق الذي عد منفذاً للمنتجات الأوروبية، هذا فضلاً عما عرفه من إقبال كبير لرجال المخزن والوجهاء عليه تعبيراً عن الذوق والوجاهة¹. «وشرب الشاي الإنجليزي الذي قدم بعد العشاء على صينية نحاسية، منقوشة برسوم وأحرف عربية. وكانت الكؤوس التي يسكب فيها الشاي مذهبة من الخارج. ونادى القايد على ابنه... ليقوم بمهمة الساقى»²، أضف لهذا، نجاح الإنجليز من خلال احتلالهم لطنجة في تعويد المغاربة على شرب الشاي، فتجاوز نجاحهم التوقعات حيث قضاوا على أهمية القهوة وعوضوها بأطنان الشاي التي كانوا يجلبونها للموانئ الرئيسية بالمغرب³. لتنتشر عادة شرب 'الأتاي' بسرعة مع مرور الوقت، حيث تجد في مشاهدات بعض الرحالة الزائرين لتطوان تسجيلاً لأصحاب الحوانيت وهم يبيعون ما لديهم من البضاعة، فكانت من العادات المنتشرة في أوساطهم ارتشاف كؤوس الشاي المنع مع استنشاق نترات من الكيف من السبسي⁴. هذا التحول من مشروب يستهلكه الخاصة إلى باقي الفئات الشعبية انطلق منذ فترة مبكرة على ما يبدو، وهو ما يسجله علي باي قائلاً أن استهلاكه شاع في «أدنى طبقات المجتمع، بحيث أنه يتناول نسبياً في اليوم من الشاي في المغرب أكثر من إنجلترا، ولا وجود لمسلم، مهما كان مستواه المعيشي، ليس لديه في بيته شاي كي يقدمه في كل ساعات النهار إلى الأشخاص الذين يزورونه»⁵. حتى أصبح يقارن برضى الوالدين بالأمثال العامية في استهلاكه دلالة على إيمانه اليومي «أتاي ورضاة الوالدين، حتى حد ما كيشبع منوم»⁶. ورغم هذا، فالنوع السائد الذي كان يصل إلى السوق المغربية هو النوع الرديء، لبخس ثمنه، باعتبار أن المغاربة، لفقر الحالة، لم يكونوا يبحثون عن الجودة بقدر ما كانوا يبحثون عن الأسعار المنخفضة، علماً أن من بين خاصيات الشاي الإيجابية أنه يهدئ الإحساس بالجوع ويساعد على تحمل ومقاومة سوء التغذية⁷.

وعلى مستوى انتشاره فإن عبد الأحد السبتي في دراسته المتميزة، يؤكد أن شربه في إطار الفضاء العائلي وارتباطه

1- نعيمة المدني، المحددات الاجتماعية والثقافية...، م. س، ص. 218. كما أشير بخصوص تطور استهلاك الشاي و مادة السكر بالمغرب خلال القرن 19، يرجع إلى أبحاثه:

2- أوجست مولييراس، المغرب المجهول، م. س، ج 2، ص. 171.

3- نزهة نجاح، العادات...، م. س، صص. 299-300.

4- محمد الشريف، «أضواء على مجتمع تطوان...»، م. س، ص. 158.

5- علي باي، رحلات عبر...، م. س، ص. 30.

6- الأمثال العامية...، م. س، مثل رقم 18، ص. 49. كما أصبح عادة استهلاكية مترسخة في عدة مناسبات و احتفالات تطوانية أشار لها الرهوني في موسوعته، ج 2، في الصفحات، 196-200-204-208-212-215.

7- عبد العزيز الخليلي، مدينة الرباط في القرن 19م (1818-1912) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية. سلسلة رسائل وأطروحات رقم: 66، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الأولى 2012، ص. 520.

بطقوس الاستقبال والضيافة وشيوعه بمناطق المغرب بادية أو مدينة جاء متأخرا، وأنه لم يصبح في متناول كل الفئات الاجتماعية إلا منذ أربعينيات القرن العشرين، وليس في مستهله¹. غير أننا وإن كان عمل المؤرخ السبتي دقيقا فيما يخص الشاي، وذا مصداقية كبيرة فإن نسا رحليا يشير صاحبه كون شيوعه على الأقل في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين في تطوان، و في أوساط العامة كان معروفا، « لقد أصبح يعرفني الآن أصحاب المحلات التجارية وصانعو الصوف وبائعوا الزيت وصانعو النعال، وخياطوا الجلابيب والصياغون،...بعضهم يدعونني لاحتساء كأس شاي مغربي، شاي أخضر منسم برائحة الأعشاب والنعناع»².

و بالإضافة إلى بساطة هذه الأطعمة والأشربة، فإن اللباس والسكن، لم يكونا استثناء عن هذه القاعدة، بالنسبة لمختلف شرائح فقراء المجال التطواني آنذاك. فأين يتجلى ذلك؟

3. اللباس

ننبه هنا أننا لن نستطيع الإحاطة بكل ما قد يبرز الوضعية المعيشية لفقراء المجال المدروس، ولكننا سنحاول تقديم صورة ولو أولية عن ذلك من خلالهما، مع التركيز على الفترة التي تهمننا، وعند الشريحة الدنيا المقصودة في التحليل، وذلك لأن الملابس وطبيعة السكن، لدى هذه الشريحة الدنيا والعريضة من المجتمع، كانا مظهرا ماديا بارزا يعبر عن حالة الفقر الذي كان ذا صلة وثيقة بطبيعة الأوضاع الاقتصادية السائدة آنذاك. فما هي إذن نماذج من ألبسة الفقراء بالحاضرة؟³

نشير في البداية إلى أن العروي بخصوص هذا المعطى، يسجل تنوعه داخل الحواضر تبعا للانتماء إلى فئة اجتماعية معينة، والحال نفسه في البوادي⁴. والواقع أن الرحالة الذين زاروا بلاد المغرب في القرن التاسع عشر وافونا بأوصاف متناثرة عن اللباس المغربي، وأكثرهم تدقيقا في الموضوع شارل دي فوكو (*Charles de Foucauld*) الذي لم يتوانى في الإشارة إلى أبسط الاختلافات في شكل اللباس كلما مر من منطقة لأخرى⁵. غير أنه لا بد من الانتباه

1- للتفاصيل راجع، عبد الأحد السبتي، وعبد الرحمان الخصاصي، من الشاي إلى الأتاي، العادة والتاريخ. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الثانية 2012.

2- روبرطو أرلت Roberto Arlt رحلة أرجنتيني إلى مدينتي طنجة وتطوان. ترجمة رجاء داكر، عبد الله اللويزي، عز الدين ضافر، مراجعة وتقديم: إدريس ولد الحاج، مركز محمد السادس لحوار الحضارات، مطبعة بريستيجيا برينت، ص. 43.

3- رغم قيام المؤرخة حسناء داود في كتابها الأخير، باستعراض العديد من الألبسة التي اشتهر بها أهالي المجال، فإنها لم تضع تصنيفا يراعي التراتبية التي ميزت المجتمع التطواني، حتى نميز منها تلك التي خصت فقراءه. انظر: تطوان، سمات وملاحم من الحياة الاجتماعية، م. س. صص. 145-183.

4- عبد الله العروي، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (1830-1912). ترجمة، محمد حاتمي، جادور محمد، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2016، ص. 42.

5- المرجع، نفسه، صص. 42-43.

بخصوص ما قدمه عن لباس المغاربة أنه ركز فقط على الزي القروي أكثر من الزي الحضري، وهذا يرجع أساسا لمحاولة اكتشافه المناطق غير المعروفة¹. ومن جهة أخرى، كان بوجدنا أن نقدم هنا تمييزا لفئات الفقراء من خلال الهندام، لكن شح المادة التاريخية كانت أبرز عائق في هذا الجانب من عملنا. لهذا سنحاول وبصفة عامة تكوين صورة تاريخية تركيبية أولية لا غير تبرز لنا فقر شريحة عريضة من المجتمع التطواني آنذاك اعتمادا على بعض المعطيات المتناثرة حسبما توفر لنا في بعض المصادر والمراجع.

فلا ريب بأن الأوضاع المادية لهؤلاء الفئات الدنيا من المجتمع تتفاوت، لكن مستوياتهم المعيشية في المجمل تكاد تكون متقاربة، لذلك فالغالب أن ألبستهم متشابهة وتتشرك تقريبا في البساطة على مستوى مكوناتها، و في قيمة سعرها، و كذا شكلها، دون أن ننسى أن بعضا من هؤلاء الفقراء، كانوا لا يغيرون ملابسهم، لشدة فقرهم إلا في حالة تكرم بعض أهل الإحسان عليهم بها، « والباقي من الشطر الثاني من مستفاد التثت يشتري به على رأس كل سنة كساوي من حياك وجلال وقشاشب وبلاغي، ويفرق ذلك على الفقراء والمساكين، وإن كان في أقاربه متصف بالفقر، فيقدم على غيره² » قيقسم نصفين النصف الأول يحاز لجانب المساكين يشتري منه أيضا ما تيسر من جلابات وقشابات وحياك وتفرق عليهم كل سنة³.

بل إن حالات الفقر دفعت بأهل الإحسان لإنشاء ما يسمى بأحباس تزيين العرائس، وهي عبارة عن مجموعة من الحلي والملابس موقوفة ومرصودة للإعارة خصيصا للعرائس المنحدرة من وسط اجتماعي ضعيف الحال⁴. و الحقيقة التي لا يمكن إغفالها في هذا الجانب، بخصوص الفقراء أن التطور في لباسهم كان بطئ التحول كما لا حظ ذلك روجي لوتورنو في وصفه للباس أهالي فاس في فترة ما قبل الحماية إذ اعتمد في ذلك على ما جاء في وصف الحسن الوزان⁵. وهو نفس البطء في التطور على ما يبدو ينطبق على هذه الشرائح بالمجتمع التطواني، فالتأمل لما سجله الرحالة الإنجليزي (John Windos) بخصوص وصفه لعناصر ألبسة ساكنة المدينة، أثناء القرن الثامن عشر، تجدها هي نفسها تقريبا عند القرن التاسع عشر، وهي نفس العناصر كان قد أثارها (John Braithwaite) في تناوله

1- أنظر لمزيد من التفاصيل، سمير بوزويته، مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية، (1832-1912). إفريقيا الشرق، 2007، صص. 158-163.

2- رسم وصية رقم 17 لصاحبها الحاج عبد الكريم بن محمد بريشة الحميدي، بتاريخ غرة رجب 1301هـ/ 20 أبريل 1884م، حوالة بها حزمة من وصايا الأحباس، بنظارة الأوقاف بتطوان. كما أنها ذكرت ب، تاريخ تطوان، م. س، مج 12، ص. 197.

3- رسم وصية رقم 20 لصاحبها عبد السلام بن أحمد غرسية، بتاريخ منتصف شعبان 1322هـ/ 18 أكتوبر 1904م، حوالة بها حزمة من وصايا الأحباس، بالنظارة نفسها.

4- محمد العبدلاوي، «الدور السوسيو اقتصادي...» م. س، ص. 173.

5- لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، لبنان، 1986، ج2، ص. 717.

لللباس المغاربية عموماً¹. وحتى بما دونه بيدو دي سانطولون (*François Pidou de Saint Olon*) في إطار سفارته للمولى إسماعيل إذ تحضر كذلك عدة قواسم مشتركة بخصوصها². وهي الحقيقة التي نجد صداها حتى عند أولئك الرحالة الذين زاروا المدينة في ثلاثينات القرن العشرين، كالرحالة الأرجنتيني (*Roberto Arlt*) الذي زارها سنة 1935م، إذ اعتبر أن إيقاع الحياة المجتمعية وعناصرها المادية آنذاك، مازالت تنتمي، ل « العصر الوسيط، أجد نفسي في خضم نمط حياة ظن اعتقادي الخاطئ أنه ولى إلى غير رجعة منذ قرون خلت. كل شيء هنا بدائي وقديم جدا وبعيد يعمل الناس كما لو كانوا في زمن شارلمان أو المنصور أو فيليب الثاني »³.

وحتى تعم الفائدة، سنحاول و بتركيز إبراز لباس الفقراء باعتماد معيار الجنس أي حسب الرجال و النساء. إيماناً منا أن تقسيم الفضاء بين الذكور والإناث في المجتمع المغربي، تحكمه أبعاد أساسية متجذرة في منظومتنا الفكرية والثقافية، أولها متعلق بوظيفة الخصوبة والإنجاب، والثاني يتعلق بالدلالة الرمزية لشرف العائلة والرجل بشكل خاص الذي يرتبط بأي انتهاك لجسد المرأة⁴. ووفق هذه الأبعاد تم تعيين لباس المرأة في المجال العام المخصص للرجال حصراً⁵.

الرجال

كان ضعفاء رجال مجتمع المجال التطواني أو البسطاء في أحوالهم المعيشية عادة ما يلبسون قمصانا قصيرة بأكمام واسعة يتكونها أحيانا مفسوخة، ولكنهم في الغالب يربطون طرفيها بأكتافهم ليبقوا مستريحين⁶. ولعل المقصود هنا لباس التشامير، حيث « تارة يفتحون طوقه إلى الصدر، وتارة إلى الكتف، ثم تارة يعقدونه بعقدة أو عقدتين، وتارة يعقدونه بخيط يسمونه السريفة.»⁷. وكان هؤلاء الفقراء يقتصرون عليه أحيانا وحيدا تحت السلهام أو الجلباب خاصة في فصل الصيف⁸، أيضا لبسوا القميص أو الصدرية (البدعية)، وكل واحد يختار اللون الذي يعجبه، وهي قصيرة

¹- أنظر مينة مادني، تاريخ الثورات في المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل، لمؤلفه جون برايت وايت، ترجمة ودراسة. د. د. العليا، نوقش بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. السنة الجامعية 1999-2000، صص. 301-302.

²- بيدو دي سانطولون، سفارة لويس الرابع عشر إلى المولى إسماعيل، ترجمة، وتقديم، محمد العافية العروسي، مطبعة تطوان، الطبعة الأولى، صص. 77-86.

³- رحلة أرجنتيني إلى مدينتي طنجة وتطوان، م. س، ص. 47.

⁴- ثورية المسعودي، أوضاع النساء في المغرب الراهن (1947-2014)، مقاربة تاريخية. أطروحة في التاريخ، نوقش بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سنة 2017، ج 2، ص. 61.

⁵- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

⁶- عن رحلة جون وندوس، تاريخ تطوان، م. س، مج 2، ص. 56.

⁷- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 182.

⁸- محمد بوسلام، اللباس التقليدي في المغرب، الجذور والإنتاج والأصناف والتطور، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، طبعة 2014، ص. 127.

تغطي نصف الجسم، وبها عقد مزدحمة، وأحيانا تكون مخيطة بخيوط فضية أو ذهبية¹، وسميت بالبدعية « نسبة للبدعة، كأن معناها صدرية مبتدعة، وكأنها لم تكن عندهم قديما، ثم كانت والفرق بينهما عرفا أن الصدرية مفتوحة للجنب، والبدعية مفتوحة للصدر، مع كثرة عقد الثانية وأزرارها، والاختصار في الأولى على عقدة أو عقدتين². ومن الألبسة الخارجية نجد الكساء إذ كان الشخص يلفه حول جسمه ليغطيه به كاملا من قمة رأسه إلى حدود كعبية³، وهو يختلف في الجودة حسب مستوى الثروة والمنصب الاجتماعي⁴. بل يسجل الرهوني أنه « قلّ من يلبس من العلماء والشرفاء ورؤساء الأغنياء الكساء⁵ ». إلى جانبه عرف رداء مغربي أصيل سمي بالسلهام أو البرنس كان يصنع من «ثوب وإما من صوف غليظ أخشن من ثوب الكساء⁶ ». و قد لبسه بعض العوام مادام ثمنه كان يحدد حسب نوعية القماش وفصول السنة و مستوى الثروة⁷، أو إمكانيات الزيتون. و مع مطلع القرن العشرين ساد الجلاباب* كلباس خارجي عند جميع فئات المجتمع التطواني، و الذي عرف بمميزات منها أن جلابة التطوانيين طويلة ورقيقة، ذات ألوان كالبنفسجي أو الأزرق⁸. غير أن الفقراء عادة ما إشتهروا حسب وندوس بلباس جلابية مصنوعة من صوف خشنة بدون أكمام، وإنما فيها ثقب منها يخرجون أيديهم، و تصل تلك الثياب إلى ركبتهن، فتكون حول الجسم كخنشة. و يلخص نفس الأجنبي الفرق هنا بين لباس الأغنياء والفقراء بتطوان أن الأولى تصنع من صنف ممتاز والعكس بالنسبة للفئة الثانية⁹.

أما فيما يخص السراويل، فقد لبس عند المغاربة ما يسمى بالسروال البلدي أو القنديسي¹⁰، وهو عند الطبقة السفلى والوسطى - حسب الرهوني- يصنع من الكتان، أو الثوب القطني، والعليا من ثوب الحرير في أيام الحر وبالملف وشبهه في الشتاء¹¹. وحول وسطهم يضعون حزاما « فهو في الطبقات على شكل واحد¹² » وعد من الملحقات

1- عن جون وندوس، تاريخ تطوان، م. س، مج 2، صص.56-57

2- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 182.

3- اللباس التقليدي في المغرب...، م. س، ص. 136. وأشار له وندوس كذلك في رحلته كما جاء في ترجمة داود، ص. 57.

4- المرجع، نفسه، والصفحة نفسها.

5- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 184.

6- عن جون وندوس، تاريخ تطوان، م. س، ص. 57.

7- اللباس التقليدي في المغرب...، م. س، ص. 140.

* تنوعت مسميات الجلاباب التطوانية الرجالية فكان هناك، « الجبارية، والطالبية، ود المحربل، والوهرانية» أنظر: حسناء داود، تطوان سمات وملاح...، م. س، ص. 150.

8- محمد الشريف، «أضواء على مجتمع تطوان...»، م. س، ص. 165.

9- راجع جون وندوس، تاريخ تطوان، م. س، ص. 57.

10- اللباس التقليدي في المغرب...، م. س، ص. 124.

11- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 184.

12- المرجع، نفسه، ج 2، ص. 185.

التي لا غنى عنها في كل لباس مغربي، ولا يتم التخلي عنها عند سائر الناس إلا وقت النوم، والأحزمة أنواع تختلف باختلاف المناطق ومستوى الثروة¹. وليكتمل الهدام كان لا بد من غطاء للرأس إما بطاقيّة أو طربوش أو عمامة أو غيرها مما كان متداولاً²، ولأهمية العمامة كمثال في الوسط المغربي آنذاك نعث من لا يضعها في كثير من الأحيان بأنه ساقط المروءة وخارج عن الآداب العامة³. ويبدو أن المجال التطواني انتشرت به الأغطية الثلاث، « وعلى رؤوسهم - التي هي دائماً محلوقّة - طربوش صغير لونه أحمر، وعليه عمامة، ومن ذلك يتكون غطاء الرأس، وحين يخرجون إلى الخلاء، يضعون على رؤوسهم قبعات كبيرة تقيهم حر الشمس »⁴. غير أن العامي الحضري عرف بلباس طربوش لائط، أو طاقيّة عليها عمامة مما ذكر⁵ « وإن كان عامياً يلبس الطربوش اللائط أو الطاقيّة مع العمامة البيضاء المعروفة بكونها من القماش الرقيق من ثوب الحياتي أو السوسدي، وتلبس بواسطة لفها على الطربوش الأحمر اللائط عدة لفات »⁶. بل إن أهل الحرف والتجارة والبدو والصناع والبحارة وغيرهم كانت لهم عمامة تناسب كل مستوى وكل مرتبة اجتماعية⁷، وهو ما أكده جون بريثويت قائلاً: « يلبسون عمامة يختلف رونقها وضخامتها باختلاف وضعيتهم الاجتماعية »⁸. فقد فضل أهل الصنائع والحرف على سبيل المثال نمودجا متوسط الحجم لأنه يجمع ما بين تغطية الرأس وصغر الحجم، وتسهل معها عملية التقفد وإعادة اللف في حال السقوط⁹. في حين كان فلاح النواحي القريبة يتعمم بعمامة بيضاء الرزة أو صفراء شرقاوية و كان الشباب يلبسون طاقيّة صوفية، وفي أيام الصيف يحمل الفلاح فوق عمامته شاشية من الدوم¹⁰.

و أما لبس الرجلين، فالمعروف هو انتعالهم البلغة والتي كانت حذاء شعبياً لم يقتصر على فئة أو وظيفة أو مناسبة، و إن كانت تعددت أشكالها و درجة جودتها، ف « الطبقة الراقية تلبس البلغة ذات النعول وتسمى بالمشربلة، وغيرها تلبس ذات النعل الواحد، المسماة بالطالبية »¹¹. وهذه الأخيرة كذلك اشتهر بانتعالها الفلاح البسيط بالنواحي،

1- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، ص. 160.

2- المرجع، نفسه، ص. 142.

3- المرجع، نفسه، ص. 143.

4- جون وندوس، تاريخ تطوان، م. س، ص. 57.

5- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 184.

6- تطوان، سمات وملامح...، م. س، ص. 150.

7- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، ص. 147.

8- تاريخ الثورات في...، م. س، ترجمة، مينة مادني، ص. 301.

9- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، ص. 148.

10- محمد عبد الحفيظ البقالي، سمسة، ذكريات من تاريخ قرية. (بدون تاريخ طبع و غياب مؤسسة الطبع والنشر)، ص. 141.

11- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 183.

مرفوقا بجلبابه وزعبولته الجلدية، التي تختزن بعض المحتويات¹. ودونما شك أن وجود حرفة الطرافين التي اقتصت بها اليهود بالمدينة وبعض الأفاقين كانوا ملجأ الفقراء وذوي الخصاص في كثير من الأحيان لتطريف أحذيتهم ونعالهم البالية و المهترئة لإعادة الحياة لها من جديد، في ظل عدم القدرة المادية لهؤلاء لشراء الجديد. أي أن ضعف الإمكانيات المادية كان يدفع بغالبية الناس إلى الاقتصار من المأكل والملبس على ما لا بد منه، ولا يدخرون من الملبوس إلا ما يبدلون به ما بظهرهم، ويقتصدون في المعيشة حتى يكون المدخر لشهرهم يكفيهم في ذلك الوقت لسنة².

ونظرا لامتهان العديد من النساء والرجال البسطاء منهم للخياطة في بيوتهم، جعلهم ذلك على دراية بالفن والترق والتزيين، خاصة لملايس أسرههم البئيسة و لأمثالهم كأحد فنون العيش في ظل الفقر الذي منعهم من توفير كل جديد. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن قطاعا كبيرا من ساكنة المجال التطواني ذوي الأصول الجبلية بالذات شكلوا نسبة غالبية من هذه الفئات الدنيا، إذا ما اعتبرنا حجم علاقات التأثير والتأثر في مختلف الاتجاهات التي ربطتهم بالحاضرة بشكل دائم أو مؤقت، فهؤلاء تميزوا عموما بلباس بسيط و في الغالب حسب أوجست مولييراس، « شبيه بما نجده في مناطق جباله³ ». فالرجال الفقراء من بني سعيد وبني معدان يرتدون الجلابة⁴ التي تتميز بقصرها لحدود الركبتين « جمهور تختلط به جلابة الجبليين القصيرة⁵ ». والمخططة بلونين الرمادي والأسود⁶، إضافة لقميص أو سلهام حيث يذكرهما دوفوكو فيما يخص فقراء بني حسان والأخماس، « وليس للفقراء إلا قميص من صوف أبيض وجلباب أو سلهام من نفس الثوب ولا شئ على الرأس تلفه قطعة نسيج بيضاء أو حمراء تاركة الجمجمة عارية. الأرجل عارية أو بها نعل⁷ ». في نفس المضمار يورد (Michaux Bellaire) في بداية القرن العشرين أن الرجال في جباله كانوا يتزينون بقميص من قطن أبيض، وفوقه قشابة صوف، وسروال قصير يصل إلى حد الركبتين، على خلاف رجال سهل الغرب الذين تخلوا عن السروال، ويتميز الشباب عن الكهول بجلباب قصير مزركش⁸. كما يشير إلى أن معظمهم يغطون رؤوسهم باستثناء المسنين وأعيان القبيلة الذين يضعون فوق رؤوسهم عمامة وينتعلون بلغة⁹. ومادام اليهود قد شكلوا

1- محمد عبد الحفيظ البقالي، سمسة...، م. س، ص. 141.

2- عمدة الراوين، م. س، ج2، ص. 188.

3- المغرب المجهول، م. س، ج2، ص. 200.

4- المرجع، نفسه، ص. 199.

5- محمد الشريف، «أضواء على مجتمع...»، م. س، ص. 165.

6- المغرب المجهول، م. س، ج2، ص. 542 و ص. 582.

7- شارل دوفوكو، التعرف على المغرب 1884-1883، الرحلة 1، ترجمة، المختار بلعربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، البيضاء، الطبعة الأولى 1999، ص. 22.

8- *Quelques Tribus de montagnes de la region du Habt*, in A,M,vol. 17, 1911,p. 23.

9- *Quelques Tribus ...*, opcit, p. 121.

جزءاً أصيلاً كما سبق ذكره من بنية هذا المجتمع، فرغم وصفهم في أحد التقارير التي كتبها (*Yahudá M, Abecasis*) بـ « أنهم أغنى يهود المغرب على العموم »¹ مقارنةً بجهات أخرى، فإن غالبيتهم بالمدينة « كانوا يعيشون في فقر مذق، لما يفرض عليهم من ضرائب مرهقة »² وهو الواقع الذي يتأسف عليه بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا تطوان مع مطلع القرن العشرين، حيث ذكر إيتيان ريشي كنموذج بأن معظمهم بالمملكة « مرفوضون في كل مكان، داخل أكواخ حيهم حياة يرثى لها، يتكاثر عرقهم مع ذلك بحيوية كئيبة وغير مروضة، على حجر التلبيط المزلق، بين برك الأرواح الصغيرة »³. فالمستشف من هذا، أن شريحة واسعة من يهود المدينة عاشوا في أوضاع اجتماعية متواضعة تميزت في جوانب عديدة، كاللباس الذي يعد مرآة صادقة لتأكيد ذلك، وهو ما دفع السلطان مراراً للتدخل من أجل التخفيف من فقرهم، « فنأمر أن تستوصي خيراً بضعفاء اليهود ومساكينهم المعروفين بالسكينة المشتغلين بمعاشهم »⁴، وإن تناول بعض الباحثين⁵ المغاربة مؤخراً لحياة اليهود بالمدينة محيطين بعدة جوانب تاريخية لهم، فإنهم لم يخصصوا لفقرائهم سوى حيز ضيق لا يشفي الغليل لتكوين صورة كافية عن حياة أولئك البؤساء بالذات.

لذلك ففي تصورنا المتواضع، أن بؤساء هذه الطائفة خضعوا في زيمهم لإكراهات عاملين، الأول مرتبط بشريعتهم اليهودية، والثاني إمكانيات الفرد المادية وطبيعة الأنشطة المهنية التي احترفوها، فعلى مستوى الألوان فاليهود كانوا يرتدون الأسود والألوان الداكنة، في الوقت الذي كان المسلمون يلبسون الأبيض وغيرها من الألوان الزاهية الأخرى⁶. هذا التمييز أثار الأجانب و سجلوه في كتاباتهم بدقة، كالحاج محمد البغدادي أو (*José María de Murga*) الذي

1- أورده داود، التكملة، م. س، ص. 430.

2- نفسه، ص. 430. ونفس الحقيقة تحضر بخصوص وضعهم المعيشي عند بريتويت، « يعتبر يهود هذه المنطقة أكثر غنى من يهود أي جزء من أجزاء ممتلكات سلطان المغرب، ومع ذلك كانوا شديدي الفقر بسبب أدائهم لضرائب مرتفعة... » راجع، ترجمة مينة مادني، م. س، ص. 100.

3- رحلة في أسرار بلاد المغرب، م. س، ص. 88. نفس الوصف يقدمه Ángel Caberera في رحلته لتطوان سنة 1913 حيث قال: « يشكل اليهود موضوع احتقار بالنسبة للمغربي » أنظر محمد الشريف، « أضواء على مجتمع تطوان... »، م. س، ص. 161. بل وندوس قبلاً، و في حديثه عن عادة الاستسقاء يشير إلى أنه في حالة عدم سقوط المطر كان أهالي تطوان يطردونهم من المدينة لوسخهم و تعفنهم الذي تنبعث منه روائح جد كريهة ». راجع: تاريخ تطوان، م. س، مج 2، ص. 69. بل الوضع البئيس لحي اليهود و الظروف غير الإنسانية لمعظمهم تبرز بشكل أوضح عند بيبير لوتي، أنظر في ذلك، مقال، أناس الصنهاجي، « صورة المغرب والمغاربة من خلال رحلتي لوتي ودوتي ». ضمن ندوة، الثقافة الشعبية المغربية في النصوص والدراسات الوطنية والأجنبية. تنسيق إدريس اعبيزة، فاتحة الطاب، ومحمد التعمرتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 187. مطبعة أبي رقراق بالرباط، طبعة 2016. صص. 159-160.

4- رسالة سلطانية إلى قائد تطوان، بتاريخ 2 رمضان 1280هـ/3 فبراير 1864م، ب: مح آل أشعاش، م. و. م، بالرباط.

5- مثال الباحث، عمر لمغيبشي، في دراسته المعنونة ب: يهود تطوان 1492-1900، دراسة في التاريخ والتحويلات، منشورات باب الحكمة، تطوان، طبعة 2019، في جزئين. حيث تناول موضوع اللباس اليهودي بصفة عامة دون مراعاة التراتبية التي وضعها لهم في جانب التعريف بالتصنيف الاجتماعي الذي ميزهم.

6- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، ص. 206.

قال في هذا الصدد: « كان اليهود المغاربة في الماضي ملزمون بارتداء ألبسة تكون ألوانها قاتمة، وإذا ما ارتدوا جلبابا فرض عليهم أن يضعوا قطعة ثوب أسود على ظهورهم بغرض تمييزهم عن المسلمين ¹. لذلك كان ينبغي على اليهودي أن يلتزم في هندامه بارتداء ملابس سوداء وبوضع شاشية سوداء على رأسه وانتعال حذاء أسود ². و بشكل عام فإن لباس الرجال من اليهود قد استجاب بطريقة خاصة لنمط المعيش ³، السائد بكل جهة. و لذا فالفقير منهم كان يلبس سروالا وقميصا طويلين وفرجية منسدلة على الجسم، ويحزم خصره بكرزية سوداء يختلف سمكها وعرضها، ثم يضع فوق ذلك رداء أسود ويحتذي بلغة سوداء ويغطي رأسه بشاشية سوداء ⁴ ولعل شيوع العنصر الأخير يرتبط بما يضيفه من زينة و اصباغ الجمالية على باقي الهندام، حتى قيل في أمثالهم « الشاشية تطيح الرأس، و الوجه تضويه الحسانة ⁵. و إن كانت حلقة الوجه من العادات التي أخذت بعين الاعتبار لإضفاء رونق على الجسد كما يبدو، فالمشهور أن اليهود حافظوا على لحاهم « للرجال لحي مهملة ويعتمرون طرابيش قاتمة ⁶ وهو ما يؤكد الباحث بوسلام في دراسته للزي اليهودي بالمغرب حيث كانوا يحافظون على جملة كثيفة من الشعر يتكونها متدلية عند الصدغ، ويتكون شعر اللحية طويلا وغير مخلوق متناثرا على الذقن ⁷.

النساء

إذا كانت المادة التاريخية لا تسعفنا في الوقوف بتفصيل على ما يخص لباس العاميات من نسوة المجال التطواني خلال الفترة موضوع البحث، فإننا سنحاول لم شذرات متناثرة في بعض المصادر و الدراسات التي لا تخلو من فائدة وقد تسهم في إطار تحليلنا على تركيب صورة تاريخية عامة ذات موضوعية لإبراز بساطة مستوى معيشتهم وبؤسه في نفس الوقت.

لعل أبرز قطعة شكلت جزءا هاما من لباس الفقيرات، ما كان يدعى حينه، بالحائك* « وسواء كنا ميسورات

1- ذكريات مغربية للمورو بيتكايانو. *Recuerdos Marroquies del Moro Vizcaino*. ترجمة، وتقديم، محمد المساري، مطبعة ليتوغراف بطنجة، طبعة 2014، ص. 259.

2- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، ص. 206. وهذا ما سجله مولييراس بخصوص يهود ملاح الشاون : «فاحصا اللباس الداكن لليهود وعباءتهم الطويلة وسروايلهم ونعالهم السوداء وسحتتهم الماكرة»، راجع: المغرب المجهول، م. س، ج2، ص. 117.

3- عبد الله لغماند، يهود منطقة سوس، 1860-1960، دراسة في تاريخ المغرب الاجتماعي. منشورات دار أبي رقرق، الرباط، طبعة 2016. ص. 348.

4- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، ص. 208.

5- السعيد بنفريحي، اليهود في الأمثال العربية العامية والفصيحة. طبع دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط طبعة 2013، ص. 69.

6- رحلة في أسرار بلاد المغرب، م. س، ص. 88.

7- اللباس التقليدي في المغرب...، م. س، ص. 208.

* يتخذ في تطوان عدة أسماء تبرز أنه كان أصناف مختلفة، منها دالمحربل، ودالحاشية، ودالسكر، ودالفيدياح، وبولوهوان، وأشمال. راجع: تطوان، سمات وملاح...، م. س، ص. 160.

أو فقيرات يسرن متلفعات بحياكهن البيضاء، فلا يرى منهن إلا جزء من الجبهة وعين واحدة ورجلين. إن هذا الغطاء يتشابه إلى الدرجة التي لا يسمح بالتمييز بين امرأة و أخرى في الشوارع أو المنتزهات العامة»¹، وهو اللباس نفسه، الذي أشار إليه *John Braithwaite* في مشاهدات رحلته التي كان جزءا منها يخص تطوان، قائلا: « أما سطوح المنازل التي مررنا بجانبها، فقد كانت مكتظة بالنساء اللاتي لشدة تسترهن في لباسهن أصبحن تظهرن كالأشباح والخيالات، أما أجسادهن فقد لفت برداء صوفي أبيض، كما حجبت وجوههن بثوب من كتان »²، والقطعة التي رافقت الحائك في عملية تحجب المرأة التطوانية البسيطة كما يذكر بريثويت، يقصد به اللثام أو النقاب أو الحجاب الذي تضعه على وجهها، ثم تسحب الجزء الأعلى من الحائك على رأسها وتشد حواشيه عند صدرها فتكون بذلك غطت كل جسمها³. وهذا التلحف يبرز لنا أن اللباس أبان أنذاك عن مدى درجة تغلغل قيم المحافظة بمجتمع المجال التطواني، وطبيعة الأدوار التي كانت موكولة للمرأة والتي تفرض عليها لباس محدد وإن كانت عامية باستثناء الإماء أو الخادמות السودوات، اللواتي شكلن جزءا من نساء الهامش أو الفئات الدنيا، كن يفضلن الخروج في أحياء المدينة بدون حجاب، أي أن اللثام عادة ارتبطت بالحرائر لا غير⁴.

وفي استعراض الرهوني لبعض ما لبسته نسوة تطوان من أزياء، فهو يشير إلى القفطان كقطعة من ثقافة اللباس النسوي الشائع بالمدينة، لكن ذكره لتفاصيل صناعته وتزييقه، ونوعية الأثواب التي شكلت مكوناته، يتضح أنه كان من الصعب جدا على فقيرات المجال الحصول عليه⁵. وهي الخلاصة نفسها التي ينتهي إليها بوسلام قائلا: « أن القفطان رداء يصعب على الطبقات الاجتماعية الدنيا اقتناؤه، ولا يحصل عليه الفقراء والمعسرون من الناس إلا نادرا بعد عناء طويل، وقد لا يدركه الكثير منهم إلا من سوق البالي أو يتلقاه من مستعمل سابق من المترفين هدية أو صدقة »⁶.

ومن الملاحظ فيما يخص الواقع المعيشي لكثير من أسر المجتمع خلال المرحلة، أن الفقر كان ظاهرة شاملة آنذاك، فإذا كان ذلك العامي أو العامية ليس لهم في الغالب إلا قطع محدودة مما يستر الجسد وعورته، فنجد أن نسوة شريفات ذات مقام في الوسط الاجتماعي، يتوسلن الذات العلية في كثير من المراسلات يطالبن أمام قسوة الزمن بكسوة

1- فيليب أوبيلو كناليس، حميميات من المغرب كتابات الطبيب الإسباني عن مغرب القرن التاسع عشر. ترجمة، المساري محمد، تقديم، فرانتيسكو مارتينيس أنطونيو. ليتوغراف، طنجة، الطبعة الأولى 2015، ص. 126.

2- تاريخ التوراث في الإمبراطورية...، م. س، تر، مينة مادي، ص. 94.

3- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، ص. 139. أنظر تعريف هذا اللباس كذلك عند حسناء داود، تطوان، سمات وملاح...، م. س، ص. 162.

4- التكملة، م. س، ص. 386.

5- عمدة الراوين، م. س، ج 2، ص. 184.

6- اللباس التقليدي في المغرب...، م. س، ص. 128. حددت حسناء داود، بكتابتها السالف الذكر، عدة أصناف للقفطان التطواني. راجع، تطوان، سمات و ملاح...، صص. 157-158.

لهن و لأفراد أسرهن لضيق الرزق و غياب المدخول، «كان يمنح جدتنا الشريفة للاخدوج بنت سيدي علي ابن ريسون أخت سيدنا عبد السلام كل سنة كسوة وقمحا وصلة...وقد رفعنا الأمر لمولانا لينظر فينا بعين الرحمة ويزيل عنا ما بنا من الخصاصة وقلّة ذات اليد وكبر الدار وزوجي دائما يشتكى ولسيدي العافية وليس لنا ما نكسوا به نفسنا ولا أولادنا فنطلب من مولانا أن ينفذ لنا كسوة وصلة وقمحا»¹، أيضا نجد نفس الطلب تقوم به الشريفة أم كلثوم التي و لفقرها، تراسل السلطان لتوفير ثلاث ضروريات من، سكن وقوت و كسوة تقيها قسوة البرد، فهي « عاجزة عن اكتساب ما تؤدي الكراء به...وأن يمن عليها بكسوة ووطاء تتدفى بهما...إبان الشتاء والبرد لتدفئة عظمها وبرودته»².

وإن كان تحديد نوعية الألبسة المنعم بها على النسوة الشريفات الفقيرات، غير محددة الأشكال و الأسماء في الغالب بالمراسلات، فلا يبدو أنهن اختلفن فيه كثيرا مقارنة مع العاميات المسحوقات، وهذا ما خلص إليه الباحث محمد عمراني قائلا: « يتضح مما سبق أن الشرفاء لم يكن لهم لباس خاص بهم وأنهم لم يكونوا مميزين في ذلك عن غيرهم، بل خضعوا للتقاليد السائدة في البوادي والمدن»³. وهذا ما يعكس بوضوح مدى غياب التفاوت الاجتماعي في شقه المادي بين معظم فئات المجتمع التطواني الذي اکتوت شرائح عديدة منه، و دون استثناء آنذاك من شيوع الفقر في أوساطها وتغلغله بقوة في واقعهم المعيشي. فهل تلك الأمثلة الدارجة التي سادت في الوسط الشعبي كانت ترجمة لذلك، مثل: «كناكلوا القوت، ونستناو الموت»⁴، « كل عام أقبح من آخور»⁵، «الزلط حكما والفلوس نقما»⁶.

ومادام الرحالة الأجانب الذين اهتموا في زيارتهم للمدينة بمواضيع لم تكن لتثير اهتمام الكتاب المحليين، كموضوع النساء على اختلاف مقامهن الاجتماعي، و ما يختص بحياتهن اليومية من صور و مشاهد كاللباس، نجد أن أصدق وصف لمكون لباس العاميات منهن، هو ما قدمه (John Windos) إذ بالإضافة لإشارته للحايك، فهو يطلعننا أنهن كن «بدون جوارب، ماعدا نساء الأعيان، فإنهن يلبسن سراويل طولا تنتهي بثنيات تصل إلى الأعقاب وأحذيتهن تشبه أحذية الرجال»⁷. وبخصوص ألبسة الرجل من نعال وخفاف أو أحذية فالأنواع التي اشتهرن بلباسها هذا الصنف من

1- رسالة من الشريف المكي و زوجته الريسونيان إلى السلطان، بتاريخ 4 ربيع الثاني 1316هـ/ 14 غشت 1898م، ب:مح 16، م. و. م، بالرباط.

2- رسالة من أم كلثوم الريسونية، بتاريخ 7 شعبان 1315هـ/ 24 دجنبر 1897م، ب: مح 11، م. و. م، بالرباط.

3- محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة والسياسة: المجال الغربي نموذجاً، من القرن 16 إلى 19م. دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2000 / 2001، ج2، ص. 333.

4- الأمثال العامية في تطوان...، م. س، مثل رقم، 203، ص. 118.

5- المرجع، نفسه، مثل رقم، 121، ص. 115.

6- م. ن، مثل رقم، 16، ص. 108.

7- أنظر النص، تاريخ تطوان، م. س، مج2، ص. 57. تؤكد حسناء داودا بخصوص لباس الرجل، أن التطوانية عرفت لباس الطوزان لاسيما المصنونات، حيث لم تكن تلبسه الإماء ولا النساء العاهرات، وأن الجوارب كانت قليلة عند الجنسين. راجع كتابها، تطوان، سمات...، صص. 165-166.

النساء غير محدد. فهل كان هو، الريحية، المشاية، أو الشربيل؟، لكن بوسلام يشير إلى أن هذا الأخير و الريحية كانت تطوان خلال القرن التاسع عشر والعشرين، إلى جانب الرباط وفاس ومراكش أشهر مراكز إنتاجهما وبوفرة، وبالتالي فمن المرجح أن يكونا من الأنواع المتداولة في أوساطهن¹. بل لاحظ الرحالة نفسه استطاعته أنذاك تقديم بعض ما كن يلبسنه من زي داخل بيوتهن، رغم الصرامة و الحظر الذي كان معمولا به بالمدينة فيما يخص احتكاك الأجانب بالنساء المسلمات، فيسجل طريقة تسريحتهن، وغياب غطاء الرأس، وبدعيات تحتها أقمصة مطرزة، وهو ما جاء في جزء من نص رحلته، كالتالي: « وفي دورهن يبقين عاريات الرؤوس، فلا يضعن عليها غير خمار، وشعرهن مغسول يجمعنه في ضفيرتين يسدلنهما وراء ظهورهن*، ويلبسن صدريات 'بداعي' تغطي نصفهن الأعلى، ويجعلنها مفتوحة من أمام، لتظهر زينة الأقمصة المطرزة، وأكمامهن يربطن بها قطعة خفيفة تبقى مدلاة منها². فالأكيد هنا بالنسبة لغطاء الرأس خارجا هو مخالف عن الرجال تماما، إذ تقتصر معظمهن على تغطيته بمناديل متنوعة الأحجام والألوان لحجب شعورهن عن الأنظار، لأنه لم يكن يحق للمرأة أن تبرز شعرها وتتركه منسدلا على كتفها أو صدرها أو تظهره للعيان. لذلك كانت في الماضي تجمع شعرها وتلفه حول رأسها في ظفائر، ثم تغطيه بمناديل وسبنيات مختلفة اللون والشكل والشد³.

ولاكتمال الصورة فحضور البدويات من أحواز المدينة وغيرها، كان لافتا - كما سبق ذكره - فهؤلاء الفقيرات اختلفن في كثير من تفاصيل لباسهن عن الحضريات، وقد اقتصر وصف الرحالة الأجانب فيما يخص هذا الجانب على نساء العوام ولم يشمل إلا نادرا نساء الأعيان. وأهم ما لدينا في هذا الصدد، ما ذكر عند (Charles de Foucauld) بخصوص نسوة قبيلة بني حسان قائلا: « لاشئ خاص يذكر بالنسبة للباس النساء: يلبسن ما يلبس في التل الجزائري وهو دائما من الصوف والقطن الأبيض. لا تلبس النساء حجابا، وللعمل في الحقول يلفن حول ساقين قطعة سمكة من الجلد الأشقر معقودة في الأمام بإبزيم: شئ يشبه اللقافة التي كان يلبسها لائرت *Laërte* عندما كان

1- راجع دراسته السابقة في الفقرات المخصصة لتناول أحدى الإناث بالمغرب، صص. 117-122. وفي وصفه لألبسة نسوة طنجة العاميات يذكر علي باي العباسي، في رحلته أنهن « يتألفن حذاؤهن من بلغة كبيرة ملونة، ولا جوارب يرتدين، كما هو شأن الرجال » رحلات... م. س، ص. 23 بينما أشارت حسناء داود، أن السباط المطلق والشربيل أبرز ما لبسته نسوة المدينة. راجع، تطوان، سمات...، ص. 166.

*لعل وندوس يقصد هنا، شدة العويقة والتي كانت النسوة تلجأ لها حينما تكن مستعجلات من أمرهن. راجع بوسلام، اللباس التقليدي ...، م. س. ص. 158-159.

2- جون ويندوس، تاريخ تطوان، م. س، مج2، ص. 58.

3- محمد بوسلام، اللباس التقليدي...، م. س، صص. 156-157. (بتصرف)، ولعل الرهوني في موسوعته، عمدة الراوين، ج2، يحاول أن يبرز لنا هذا اللباس النسوي التطواني بنوع من الإحاطة والتدقيق، راجع صص. 185-186. ورغم أنها لم تحدد تلك الأغطية التي خصت الفقيرات، و للتعرف على أنواعها راجع حسناء داود، تطوان، سمات وملاحج...، م. س، صص. 166-173.

يشتغل في حديقته¹. ولعل الذي يقصده فوكو فيما يخص الجلد الملفوف حول ساقين، ما يعرف 'بالطرابق' حيث يذكرها (Ángel Caberera) في أحد مشاهد رحلته بصريح العبارة أثناء حديثه عن جموع متجمهرة بالمدينة، قائلا: « البدويات على أظهرهن، مكونة صفوفًا غير متناهية، حافيات الرجل والساق، أو لابسات طرابق متسخة التي تنكر². نفس لباس القدمين على ما يعتقد تتم الإشارة إليه من طرف الرحالة الأرجنتيني لتطوان سنة 1935 « حفاة وبصحبة زوجات يضعن قبعات من التبن على شكل جرس، ويلفن أرجلهن بجلود الماعز الجافة³. أضف لهذا أن الجلبات الفلاحات الفقيرات، من نواحي المدينة كن يلبسن عادة لباسًا تحتيًا خفيفًا يسمى قميصًا وفوقه كسوة مزخرقة وسروالا وتشد وسطها بحزام يسمى كرزية*. وعادة ما يكون مصنوعًا من كتان أحمر اللون، والبنات الصغيرات يجعلن له خيوطا صوفية ملونة بألوان زاهية تتدلى منه، وتسمى الغراسن، وتغطي الفلاحة رأسها سنبية بيضاء، وإذا كانت ذاهبة لحقل تضع فوق رأسها شاشية مختلفة عن شاشية الرجل لأنها كبيرة ومزينة بورود من الصوف الملونة، تسمى نواوش. وكانت الفلاحة تتعل بلغة صغيرة ذات نعل واحد حمراء تسمى بلغة زيوانية⁴. وبحكم الدور الذي كانت تلعبه هذه العاميات و لخصوصية الأشغال الشاقة كن من طنجة إلى غمارة، « يخرجن بدون حجاب ويضعن فقط مناديل قطنية متعددة الألوان فوق رؤوسهن، بحيث تغطي شعرهن وتتدلى فوق أكتافهن. كما يضعن فوطة من القطن على ظهرهن وهي طويلة وتصل إلى كاعبهن⁵».

على ما يتضح أن جذور الثقافة والتأثيرات التي عرفت المناطق الجبلية على مر التاريخ، بصمت اللباس البدوي و جعلته لا يختلف كثيرا في أصوله وأشكاله في مختلف مداخل وقرى تلك الجهة الشاسعة التي تفاعلت معها المدينة بقوة. هذا - ربما - دفع بأوجست مولييراس أن يستنتج أن هناك تشابها واضح المعالم في المناطق الجبلية على مستوى اللباس.

وكخلاصة، فالإشارات المرجعية التي اعتمدها تظل ناقصة في استجلاء كل التفاصيل التي تبرز لنا فقر نسوة

1- التعرف على المغرب...، م. س، ص. 22.

2- محمد الشريف، «أضواء على مجتمع تطوان...»، م. س، ص. 166. كما يذكر أيضا عند:

-Michaux Bellaire, *Quelques Tribus...*, op .cit, p. 126.

3- روبرطو أرلت، رحلة أرجنتيني...، م. س، ص. 44.

* أنظر حوله، تطوان، سمات وملامح...، م. س، ص. 149

4- سمسة...، م. س، ص. 141. ولعل هناك مشترك كبير في لباس البدويات ومكوناته مع اختلاف بسيط، وهذا ما يثار عند مولييراس أثناء تناوله للباس بني سعيد وبني معدان، إذ يقول في كتابه السالف الذكر، « أما النساء فيضعن قبعة كبيرة على رؤوسهن ويرتدين ملابس صوفية قصيرة، لا تتجاوز الركبتين ويقمن بالأعمال الفلاحية، والمنزلية بأذرع عارية. والعديد منهن يسافرن إلى تطوان للاشتغال بدور اللهو...». المغرب المجهول، ص. 199.

5- المغرب المجهول، المرجع، نفسه، ج2، ص. 567.

هذا المجال من خلال معطى اللباس، لكن نؤمن أن التفاوت الاجتماعي كان حاضرا فيه بين شرائح المجتمع، وبين العناصر الدنيا نفسها، فنوعية القماش، و شكل اللباس وتزويقه، وطريقة ارتدائه، و ثمنه و عدد مكوناته، و فضاء ومناسبة استعماله، عناصر تتدخل بقوة في تحديد المستوى المعيشي لنسوة المجال المدروس. كما لا ننسى كذلك أن خصوصيات المرحلة الصعبة التي عاشها إنسان المنطقة، دفعت بالكثيرين إلى عدم إبراز مظاهر الترف الزائد وتوخي البساطة في المظهر، وقد اعتبر البعض أن هذه سمة عامة للمجتمع حيث يصعب في العادة التمييز بين أفراد على أساس المظهر، واعتبر آخرون أن لجوء السكان لذلك هو مخافة إثارة الأطماع¹ في ظل فقر كانت جذوره متغلغلة في السواد الأعظم من ساكنة القرن التاسع عشر.

خاتمة

خلاصة القول، لقد حاولنا في هذا المقال الوقوف على الظروف المعيشية لفقراء المجال التطواني خلال القرن التاسع عشر، عبر مؤشرات أساسية كالغذاء، والأشربة، واللباس، لكن ما يمكن تسجيله ومن خلال بعض المعطيات التاريخية، هو بساطة الضروريات ومحدودية تنوعها ونقص في جودتها، أضف للمشقة في تحصيلها. ونقّر أن هذه المكونات المعيشية الضرورية على بساطتها وصعوبة ومرارة تحصيلها من طرف المستضعفين، كانت تتأثر بشكل كبير إبان الهزات العنيفة التي عرفتها المرحلة.

من ناحية أخرى، نؤكد أن ديمقراطية التاريخ التطواني تأتي من خلال تبني مقاربات جديدة تعطي للهامشيين على اختلافهم الأولوية في البحث والدراسة، لأن الملاحظ هو غياب مثل هذه الأبحاث في اهتمامات الباحثين. وهذا العزوف وإن كانت له أسبابه فالتطور الذي عرفته الكتابة التاريخية والانفتاح الذي تبنته المدارس التاريخية على العلوم الأخرى، وإعادة النظر في الوثائق التاريخية وكيفية تحليلها أعتقد أنها محفزات مشجعة لبناء تاريخ موضوعي تكون إشكاليته المركزية البنية التحتية من المجتمع.

¹- نور الدين الموانن، ملامح من الحياة اليومية بوجدة وبواديها خلال القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، رقم 45، سلسلة بحوث ودراسات، رقم، 12، طبعة 2001، ص. 190.

البيبلوغرافيا
العربية
المخطوطة

وثائق بمندوبية الأوقاف بتطوان

- حوالة المنقطعين
- حوالة بها حزمة من وصايا الأحباس.
- حوالة أحباس زاوية أبي جيدة.
- بحوالة مسجد لوقش.
- حوالة العيساوية (فرع الفدان).
- حوالة جامع سيدي علي بركة.

بالخزانة الحسنية بالرباط

- كناش أحباس الفقراء والمساكين بثغر تطوان ومدخول أوقافها، تحت رقم: 595.

وثائق مديرية الوثائق الملكية بالرباط

- رسالة سلطانية إلى قائد تطوان، بتاريخ 13 ذي القعدة 1264هـ / 4 أكتوبر 1848م، ب: مح 2.
- رسالة سلطانية إلى قائد تطوان، بتاريخ 2 رمضان 1280هـ / 3 فبراير 1864م، ب: مح آل أشعاش.
- رسالة من الشريف المكي و زوجته الريسونيان إلى السلطان، بتاريخ 4 ربيع الثاني 1316هـ / 14 غشت 1898م، ب: مح 16.

- رسالة من أم كلثوم الريسونية، بتاريخ 7 شعبان 1315هـ / 24 دجنبر 1897م، ب: مح 11.

المطبوعة

دراسات

- إتيان ريشي، رحلة في أسرار بلاد المغرب. ترجمة بوشعيب الساوري، وتقديم المبارك العروسي، إفريقيا الشرق، البيضاء، طبعة 2016.
- أويلو كنانيس فيليب، حميميات من المغرب كتابات الطبيب الإسباني عن مغرب القرن التاسع عشر. ترجمة، المساري محمد، تقديم، فرانتيسكوخ مارتينيس أنطونيو. ليتوغراف، طنجة، الطبعة الأولى 2015.
- أوجيست موليراس، المغرب المجهول، اكتشاف جبالة. ترجمة وتقديم، عز الدين الخطابي، منشورات تفرانز اء ريف، الطبعة مطبوعة النجاح الجديدة البيضاء، الأولى 2013، ج 2.
- باي علي، رحلات عبر المغرب. ترجمة، مزار الإدريسي، منشورات ليطوغراف طنجة، الطبعة الأولى، 2008.
- البراز محمد الامين ، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم: 18، مطبوعة النجاح الجديدة، البيضاء. طبعة 1992.
- البقالي محمد عبد الحفيظ، سمسة، ذكريات من تاريخ قرية. (بدون تاريخ طبع و غياب مؤسسة الطبع والنشر.

- بل ألفريد ، بعض طقوس الاستمطار إبان الجفاف لدى المغاربة، ترجمة، سمير آيت أومغار، تقديم خالد طحطح، منشورات الزمن، مطبعة بني إزناسن، سلا المغرب، طبعة 2016.
- بنفري السعيد، اليهود في الأمثال العربية العامية والفصيحة. طبع دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط طبعة 2013.
- بوزوينة سمير، مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية، (1832-1912). إفريقيا الشرق، 2007.
- بوسلام محمد ، اللباس التقليدي في المغرب، الجذور والإنتاج والأصناف والتطور، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، طبعة 2014.
- تجار الصويرة، المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886. تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، 6، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، طبعة 1997
- حبيزة محمد، المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار. منشورات ملتقى الطرق، البيضاء.
- الخراز محمد الحبيب ، تاريخ مدينة مرتيل. مطبعة الخوارزمي، الطبعة الأولى 2020 .
- الخليلي عبد العزيز، مدينة الرباط في القرن 19م (1818-1912) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية. سلسلة رسائل وأطروحات رقم:66، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الأولى 2012.
- داود حسناء، تطوان، سمات وملاحم من الحياة الاجتماعية. منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى 2019.
- داود محمد، الأمثال العامية في تطوان والبلاد العربية. مراجعة و تنسيق وإضافات، حسناء محمد داود، إصدارات المجموعة الحضرية لتطوان، مطبعة الهداية، بتطوان، 1999 ج 1.
- داود محمد، التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان الطبعة الأولى 2016.
- داود محمد، تاريخ تطوان، مراجعة وتصحيح حسناء داود، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، طبعة 2013.
- دوفوكو شارل، التعرف على المغرب 1883-1884، الرحلة 1، ترجمة، المختار بلعربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، البيضاء، الطبعة الأولى 1999.
- دي ألكون بيدرو أنطونيو، يوميات شاهد على حرب تطوان، ترجمة، محمد عبد السلام المرابط، منشورات ليتوغراف طنجة، الطبعة الأولى 2012، ج 2.
- دي سانطولون بيدو، سفارة لويس الرابع عشر إلى المولى إسماعيل، ترجمة، وتقديم، محمد العافية العروسي، مطبعة تطوان، الطبعة الأولى.
- الرامي خالد، النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان 1862-1913. منشورات جمعية تطوان أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، طبعة 2008.
- الرامي خالد، تطوان خلال القرن الثامن عشر، تاريخ وعمران، مساهمة في دراسة المدينة المغربية. مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى سنة 2005.
- الرت روبرطو، رحلة أرجنتيني إلى مدينتي طنجة وتطوان. ترجمة رجاء داکر، عبد الله اللويزي، عز الدين ضافر، مراجعة وتقديم: إدريس ولد الحاج، مركز محمد السادس لحوار الحضارات، مطبعة بريستيجيا بيرنت.

- الرهوني أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطاون. (عدة أجزاء).
- السبتي عبد الأحد، و الخصاصي عبد الرحمان، من الشاي إلى الأثاي، العادة والتاريخ. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الثانية 2012.
- الشريف محمد، تطوان حاضنة الحضارة المغربية الأندلسية وأبحاث أخرى. منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة تطاون، طبعة 2013.
- العروي عبد الله، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (1830-1912). ترجمة، محمد حاتمي، جادور محمد، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2016.
- العطري عبد الرحيم، قرابة الملح، الهندسة الاجتماعية للطعام. المكتبة الاجتماعية، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، طبعة 2016.
- لطورنو روجي، فاس قبل الحماية، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، لبنان، 1986، ج2.
- لغمائد عبد الله، يهود منطقة سوس، 1860-1960، دراسة في تاريخ المغرب الاجتماعي. منشورات دار أبي رقرق، الرباط، طبعة 2016.
- ماري دي مورغا خوسي، ذكريات مغربية للمورو بيثكاينو. ترجمة، وتقديم، محمد المساري، مطبعة ليتويعراف بطنجة، طبعة 2014.
- الموانن نور الدين، ملامح من الحياة اليومية بوجدة وبواديها خلال القرن 19م. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، رقم 45، سلسلة بحوث ودراسات، رقم، 12، طبعة 2001.
- مبيح جون لوي، امحمد بن عبود، نادية الرزيني، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، منشورات تطاون أسمير، الطبعة الأولى 2002.
- نخبة من الباحثين، النظام الغذائي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط دراسات في سوسيوولوجيا الأحكام والقيم والعوائد. سلسلة شرفات رقم، 77، أكتوبر 2016، منشورات الزمن، مطبعة بني إزناسن سلا.

ندوات

- ندوة، الثقافة الشعبية المغربية في النصوص والدراسات الوطنية والأجنبية. تنسيق إدريس اعبيزة، فاتحة الطايب، ومحمد التعمرتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 187. مطبعة أبي رقرق بالرباط، طبعة 2016.

رسائل جامعية

- عمران محمد، الشرف والمجتمع والسلطة والسياسة: المجال الغربي نموذجاً، من القرن 16 إلى 19م. دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2000/2001.
- مادي مينة، تاريخ الثورات في المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل، لمؤلفه جون برايت وايت، ترجمة ودراسة. د. د. العليا، نوقش بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. السنة الجامعية 1999-2000.
- المدني نعيمة، المحددات الاجتماعية والثقافية لتحولات العادات الغذائية بالعالم القروي، دراسة ميدانية بالعالم القروي بالعرائش. دكتوراه في السوسيوولوجيا، نوقشت، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. السنة الجامعية 2009-2010.



- المسعودي ثورية، أوضاع النساء في المغرب الراهن (1947-2014)، مقارنة تاريخية. أطروحة في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سنة 2017، ج 2.
- نجاح نزهة، العادات الغذائية في المغرب زمن الحماية الفرنسية، الثابت والمتحول، أطروحة في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، السنة الجامعية 2014/2015.

مجلات

- مجلة زمان، ع 5-15 فبراير - 15 مارس 2014.
- مجلة أمل، ع17، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، السنة 1999.
- مجلة كلية الآداب بتطوان، ع 4، السنة 1990.

بالأجنبية

- Mohammed, Monkachi, « *L'alimentation traditionnelle dans les campagnes du nord du Maroc*», Revue médiévale, automne 1997, N° 33.
- M. Gaud, « *L'alimentation indigene au Maroc* », in Bulletin d'Institut d'Hygiene, n° 1-2.1993
- S,E,Holden, *The politics of food in Modern Morocco*. Florida, 2009
- Michaux Bellaire *Quelques Tribus de montagnes de la region du Habt*, in A,M,vol. 17, 1911
- G, Rohlfs, *Voyage au Maroc*, 1861-1862. Revue Africaine, 1863
- N , Michel, *Une economie de subsistances, le Maroc Precolonial*, Le Caire, 1997. 2 vol